أسطورة التكوين

الثقافة الإسرائيليّة الملفّقة

انطوان شلحت





الغلاف للفنان: محمود حمّاد

أسطورة التكوين

الثقافة الإسرائيلية الملفّقة

أسطورة التكوين

الثقافة الإسرائيليّة الملفّقة

أنطوان شلحت



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر

56 Knightsbridge, London SW1X7NJ

THE LEGEND OF GENESIS
A Counterfeit Israeli Culture

BY
ANTOINE SHALHAT

First Published in The United Kingdom, 1991

56 Knightsbridge
London SW1 X 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data
Shalhat, Antoine
The legend of genesis: a counterfeit Israeli culture.
1. Israeli culture
I.Title
956.94'054

ISBN 1 - 85513 - 066 - 1

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ١٩٩١

المحتويات

مدخل

هذه فصول في الثقافة والواقع الثقافي في اسرائيل. وقد كتب بعضها عقب الغزو الاسرائيلي للجسد اللبناني والدم الفلسطيني (في حزيران ١٩٨٢). وكتب البعض الآخر بعد ذلك بقليل.

وبودي التوضيح أنني كنت مسكوناً، في انتقاء مواضيع هذه الفصول، بهاجس استكناه موضوعين محوريين متصلين مبنى ومعنى:

الموضوع الأول ـ أسطورة تكون الثقافة الاسرائيلية، التي يشي الخوض فيها بانعدام المقومات الصلبة والأسس الطبيعية المتعارف عليها لثقافات الشعوب فيما جرى تقديمه على أنه ثقافة اسرائيلية تجاهر باطلاقيتها في تحديد الانتماء والهوية بينما هي خليط هش أو تهويمات تعوزها الأصالة والرفعة والرسوخ أشبه بكثبان رملية جرداء سرعان ما تذروها الرياح دون أن تخلق أثراً على وجودها وتماسكها (الفصول من الأول إلى الرابع).

الموضوع الثاني ـ حقيقة صيرورة هذه الثقافة بعد الغزو الحزيراني السالف بمدى ما شكّل ـ بحيثياته ومستحصلاته ومترتباته التي جئت على ذكرها بالتفصيل ـ من فصل بين مرحلتين اختلف في كل مرحلة منهما بل وتناقض ـ إذا ما شئنا المقارنة ـ دور الكلمة في صياغة وتنميط تفكير المواطن الاسرائيلي مع بقاء بعض الاستثناءات (وهي ليست قليلة)، التي واصلت طواعية التشرنق في غياهب المرحلة الأحادية الأولى.

ومن الضروري القول ـ استباقاً للتفاصيل الواردة في الفصل الخامس ـ وبالنسبة لتطور الوعي الثقافي الاسرائيلي أنه نمت وترعرعت حركة تعمل من أجل الاعتراف الثقافي والفكري بالشعب العربي الفلسطيني ثم ما يتبع ذلك من اعتراف سياسي. وإذا كان إذكاء التعصب وتغذية الأحقاد قد ملأ معظم الفراغ في الوعي الثقافي الاسرائيلي بتأثير من النتاجات الثقافية الاسرائيلية المختلفة فانه أتى يوم، كان للصمود الفلسطيني في وجه الغزو اليد الطولى في الإتيان به، استيقظ فيه هذا الوعي على وضعيته بكونه وعياً استسلم للعبث ـ التعصب والأحقاد. وهذا ما هو حاصل في الحركة التي نتحدث عنها.

وثمة مواضيع تثيرها فصول من هذا الكتاب (موضوع الصراع بين الشرق والغرب في الثقافة الاسرائيلية، مثالاً لا حصراً) تحتاج إلى التوسع في البحث والاستقراء والاستخلاص أكثر مما فعلنا. غير أنني آثرت الاكتفاء بما هو مكتوب نظراً لكون الموضوع يثار لأول مرة على صعيد الكتابة النقدية العربية مثله مثل مواضيع أخرى يرد تحليلها في هذا الكتاب ولم تكن، عربياً، مطروقة البتة.

وإذا لم يكن من إسهام في هذا الكتاب سوى ذلك الجمع بين الفصول التي يضمها وذلك التوليف والعرض لكفاني أنني قدمت، بما استطعت، جهداً متواضعاً أرجو أن أرفده في المستقبل ويرفده غيري من الدارسين بجهود أكبر، أعم وأشمل، تخدم قضيتنا المقدسة التي يسدي لها هذا الكتاب خدمته بالدرجة الأولى والأخيرة.

انطوان شلحت

١

في احتواء الثقافة الاسرائيلية من قبل العنصرية الصهيونية

تشكل هذه الدراسة محاولة لتوسيع دائرة الضوء حول العنصرية في الثقافة الاسرائيلية، التي تتأسس على منابت الفكر الصهيوني القديم. وهي عنصرية ذات رؤية أشد رجعية في تبرير التفاوت الحضاري للمجتمعات، على أساس انتماء الشعوب إلى أجناس «عليا حضارية» وأخرى «دنيا سلفية». فاتحة الباب بذلك لمفاهيم استعمارية من نوع خاص تغفل الزمان والمكان وتختزل التاريخ والحضارة.

ولقد استقبلنا، في مطلع الثمانينات، موجات متتالية من الاجتهادات بصدد توصيف هذه العنصرية وفحص أسبابها وتلمس سبل تجاوزها.

بيد أن محاولات كسر طوق العنصرية تمهيداً لمحاصرتها، التي تنطوي عليها هذه المحاولات، تظل محاولات مطمورة مغمورة على الغالب وسط الواقع الاسرائيلي الرسمي أو تعتمد الجهد الذاتي، في أحسن الأحوال، كما يحدث بين الفينة والأخرى على صفحات جريدة «هآرتس».

ليس المقصود هنا، بالطبع، تسفيه هذه المحاولات لدفعها إلى الموت النهائي. المقصود، تحديداً، أن لا نخلط بين «الجزئي»

(هذه المحاولات) وبين «الكلي» (الثقافة الاسرائيلية الرسمية) حتى يتحول الجزئي مسحوباً على الكلي، مساوياً له ومطابقاً.

أقول هذا الكلام لأن ما حدث بالنسبة لمقالات الصحفية الجريئة نيلي مندلر («هآرتس» - أواخر تشرين الثاني ١٩٨٤) ليس غير راية صغيرة تغرس على الطريق المطّرد الذي ينبغي أن يسير عليه كل من تعزّ عليه مثل الديمقراطية والحياة المشتركة والتعايش والقيم الانسانية المجردة.

لقد كتب الكثير حول عملية غسل الدماغ الاسرائيلي، رسمياً وشعبياً، فيما يخص الموقف من الإنسان الفلسطيني. ويصبح من نافل القول التذكير بأن كتب التدريس لا تخلو، أيضاً، من سموم الفكر الصهيوني الوحشي ازاء الانسان الفلسطيني والعربي لمجرد كونه إنساناً فلسطينياً أو عربياً.

وأن «الأدب» الذي تضمه كتب التدريس (أسماه الشاعر الفلسطيني الراحل معين بسيسو «أدب الحلوى المسمومة») يعبر عن وجهة نظر أحادية الجانب هي وجهة نظر المؤسسة العسكرية الاسرائيلية.

وكانت مندلر نفسها هي التي كشفت النقاب عن فحوى هذا «الأدب» بنشر نماذج منتقاة من كتب تدريس اللغة العبرية في المدارس اليهودية («قراءات اسرائيل») في الصفوف من الأول إلى الثامن.

أما الآن فإنها تتجه إلى استجلاء مضامين كتب لا يتضمنها منهاج التدريس الرسمي ولكنها مشمولة في قائمة كتب المراجع (البيبليوغرافيا) للمعلمين. التي يقرها المدير العام لوزارة المعارف والثقافة في منشور دوري خاص.

أول تلك الكتب وأشدها فظاعة كتاب بعنوان «مواضيع مركزية

في تـاريخ الشعب والـدولة إبـان العصور الأخـيرة» من تـأليف أمنـون حيفر (وهـو مستوطن كـولونيـالي في الضفـة الغـربيـة المحتلة).

إن هـذا الكتاب في صلب تكـوينه يهـدف، أول مـا يهـدف، إلى إعطاء الطالب الاسرائيلي إحساساً عميقاً بالارتباط بـ «الـوطن» بعـد مئات السنـين من «الشتات»و«حيـاة الجيتو». يهـدف إلى إعطاء الطالب الفرحة الغامرة التي يحس بها الانسان الذي لم يكن منتميـاً إلى أرض عبر الـدهور ثم أصبـح ذلـك المنتمي إلى أرض.

ففي مستهـل الفصـل الـذي عنـوانــه «تعلم كيف تجيب عـلى السؤال بصدد حقوقنا على الأرض» يقول المؤلف:

«إن كـل الأقوال بشـأن «الحقوق التـاريخية». التي يحفـل بها النقاش بيننا وبين العرب، تفتقـد إلى الحقيقة ونـاجمة عـلى أي الأحـوال لدينـا عن قلة الفهم وقلـة المعرفـة والدرايـة بتاريـخ الاستيطـان اليهـودي في أرض اسرائيـل. إن أميتنـا ولّـدت فرضيات كاذبة بينها تلك الفرضية القائلة انـه لدى عـودتنا إلى البلاد، بعد هجرة دامت ألفي سنة، وجدنا البلاد مستوطنة من قبل شعب آخر أقام هنا لمدة مئات السنين. وهذا غـير صحيح، لا من قريب ولا من بعيد. الحقيقة هي أننا عندما أتينـا إلى هنا الآن لم نلق أي شعب وبـالتـأكيـد لم نلق شعبـاً أقـام مئـات السنين».

وانتماء اليهودي إلى الأرض (وحصـراً أرض فلسطين) يسـوغه المؤلف بـالتفاوت الحضـاري بـين اليهـودي، الـذي ينتمي إلى جنس «علوي حضاري»، وبـين «عدوه» (العـربي) الذي ينتمي إلى جنس «دوني سلفي». يقول في هذا الصدد:

«لقـد حفرنـا الآبار هنـا. نحن فقط، الذين بمقـدورنا أن نبعث

الحياة هنا. بالمقابل فإن أعداءنا ليس بمقدورهم إلا ردم الآبار وزيادة القفر».

ويضيف:

«ان العلاقة بين شعب وبين وطنه يجري تحديدها ليس بواسطة سلطة الشعب على الأرض ـ الوطن بل بواسطة سلطة الأرض ـ الوطن على الشعب، بواسطة فحص المكانة التي تحتلها الأرض في حياة الشعب، وها هي ذي أرض إسرائيل، بوصفها بلاداً شهدت حياة تاريخية، لم تكن في مثل هذه الوضعية، إلا على أيدي الشعب اليهودي. في أيدي الآخرين كانت أرض إسرائيل مجرد منطقة أو قطاع أو جليل. ولم يكن لها وجه تاريخي إلا على أيدينا».

وحتى لا يكون مغالياً أو شاطاً حينما يقول ان العلاقة بين اليهود وبين فلسطين هي «علاقة انتماء» ذات كثافة دالة فإنه يستطرد، بشكل مقحم، في شرح أن فلسطين كانت «أرضاً بلا شعب» تنتظر «أبطالها اليهود». يقول: «لم يقم العرب، البتة، في أرض اسرائيل. ولم ينشئوا، البتة، حكماً محلياً ولم يبنوا ثقافة أو لغة أو قومية متميزة».

ويضيف في موضع آخر: «لم ينوجد الشعب الفلسطيني، جملة وتفصيلا، ولا هو من المخلوقات ولكن إذا ساعده يهودنا في أن يكون فسيكون. رغم ذلك ثمة احتمال بأننا شهود على تكون «شعب فلسطيني». في مثل هذه الحالة أيضاً يجدر التذكير بأن هذا الشعب هو من مواليد عصرنا ولا يزال محتاجاً «لحقن» أيديولوجية سياسية من أجل التواصل والوجود».

ويسجل حيفر استغرابه لحالات توبيخ الضمير، التي تعتور بعض اليهود الليبراليين ازاء الحقيقة الدامغة (شعبهم يضطهد شعباً آخر). يكتب:

«يوجد بين ظهرانينا من تعتورهم حالات شعور بالذنب جراء الإثم التاريخي الذي ألحقناه بالعرب. والمتهم الرئيسي في وجود الشعور بالذنب، المنتشر بشكل خاص بين أوساط الشبيبة، هو برامجنا التدريسية التي لا يحتل فيها موضوع تعلم تاريخ أرض اسرائيل المكان اللائق به. وثمة مصدر جدي لمشاعر الذنب تلك وهو جميع «خبرائنا» للشؤون العربية، الذين من فرط حماسهم للموضوعية تحولوا إلى ذاتيين بالنسبة للطرف الثاني وأصبحوا يتقبلون إدعاءات العرب بوصفها مسلمات تاريخية».

لاحظتم، بلا شك، أن التشديد في غالبية النصوص هو على العرب وليس على العرب الفلسطينيين. ففي صلب الكتاب تقف الفكرة المجوجة ـ نفي وجود الشعب العربي الفلسطيني أو قولبته في شكل تعوزه الأصالة والشخصية المتميّزة.

إن هذا الغذاء الروحي الفاسق لا يقتصر على المكتوب في كتب التدريس إنما يتعداه إلى وسائل الايضاح. وأبرز مثل على ذلك هو الخرائط.

في خرائط «أرض اسرائيل» عبر العصور المختلفة، التي تتضمنها كتب «الموطن» و«الجغرافيا»، مثالاً لا حصراً، يصادف الطالب توزيع الأراضي عليها وفقاً للتصنيف التالي:
* ملكية يهودية * ملكية الحكومة (حكومة الانتداب مثلاً)
* ملكية أخرى.

تقول مندلر: «الطالب الذي يستطلع خرائط منطقة يهودا والسامرة (الضفة الغربية ـ المؤلف) وقطاع غزة يجد أن معظم الأراضي غير عائدة لليهود. وعندما يستطلع مفتاح التصنيف (المثبت أعلاه ـ المؤلف) سيتبين له أن الأراضي عائدة إلى أصحاب «آخرين» هويتهم، على ما يبدو، مجهولة».

هـذا التصنيف قائم خـاصة في الكتب والكـراريس التدريسيـة الصادرة عن وزارة المعارف والثقافة. ومنها: «الحركـة القوميـة اليهودية وإقامة دولـة اسرائيل» (١٩٧٩) و«ليس عـلى طبق من فضة» (١٩٨٤) و«النزاع العربي ـ الاسرائيلي» (١٩٧٩).

وكذلك الأمر في الخرائط الكبيرة التي تعدها الدائرة التربوية في الوزارة لتعليقها عـلى جدران الغـرف الدراسيـة. ففي الغالبيـة العظمى منهـا تظهر حـدود اسرائيل من الجهـة الشرقيـة عنـد الخط الذي يتجاوز مدى التوسع الاسرائيلي في عـدوان الخامس من حزيران فيما وراء «الخط الأخضر» (خط نهر الأردن).

إن هذا التوجه ذا النزعـة التي أشرنا إليهـا يتأسس، أكثـر ما يتـأسس، على المـواقف الرسميـة لحكام إسرائيـل، الحـاليـين والسابقين، فضـلاً عن تأسســه على منـابت الفكر الصهيـوني القديم. فإن العـديد من المقـولات الاستعلائيـة العنصرية التي يـوردها حيفـر في كتابـه «مواضيـع مركـزية في تـاريخ الشعب والـدولة ابـان العصور الأخـيرة». هي استشـهادات من أقـوال صدر بها وزير المعارف والثقافة الأول في اسرائيل، البروفيســور دينور.

وأراجيف حيفـر فيما يخص «الافتـراءات بصدد المجـازر التي تعـرض لها العـرب خلال حـرب ١٩٤٨» هي جزء من الـرواية الاسرائيلية الرسمية حول حرب فلسطين (كارثة ١٩٤٨).

يقـول حيفر: «إن مقـولة: الـلاجئـون العـرب هم شعب جـرى تشريده عن أرضه، كاذبة. الحقيقـة هي أن العرب اختـاروا أن يهـاجروا من بـلاد ذات أكثـريـة يهـوديـة حتى يعيشـوا بـين الشعوب العربية. وعملياً لم تعتـرف أية دولـة عربيـة بالشعب الفلسطيني. وبالإضـافـة إلى ذلك لا تـوجد ذرة من الحقيقـة في «حكايات الفظائع» عن ذبح العرب في أعقاب معركة دير ياسين.

الحقيقة هي انه في هذه المعركة شارك مقاتلو «أتسل» و«ليحي» ولقي ١٥٠ عربياً مصرعهم. ولم يخلِ العرب النساء والأطفال الذين تمترسوا في البيوت إبان القتال. ولذا كان بين القتلى نساء وأطفال».

ونجد مثل هذا التبرير لذبح النساء والأطفال في دير ياسين، مساوياً له ومطابقاً، في أكثر من رواية اسرائيلية رسمية عن المذبحة.

حتى في الروايات التي تتخذ جانب التحفظ من المذبحة باعتبارها «عملاً» نفذه المنشقون (الاتسل والليحي) يتخذ التبرير بشكل الهجوم، منفلت العقال، على العرب الذين «يستغلون حتى الآن اسم دير ياسين لتلطيخ سمعة دولة اسرائيل ويعممون شائعة دير ياسين بقصد زيادة كراهية العرب لليهود»[1].

وفي حكايات أخرى يتخذ التبرير شكل ردّ المذبحة البربرية إلى عامل الانتقام كما برز في أقوال أحد قادة «الليحي»:

«كان رأيي، فيما يتعلق بدير ياسين، سلبياً. وكتبت هذه الأمور إلى المسؤول عن القدس وقتئذ. حتى اليوم لم أنجح في معرفة حجم المذبحة التي نجمت عن هذه العملية. عندما أتذكر كيف اقتيدت إلى الذبح أمي وأختي وابناء عائلتي الآخرون لاأستطيع تقبل مذبحة كهذه (إلى هنا يبدو الكلام معقولاً - المؤلف). أنا أعرف أنه في وطيس المعركة تحدث أشياء كهذه. وأنا أعرف أن الأشخاص الذين يقدمون على ذلك لا يكونون مصممين على فعله مسبقاً. إنهم يقتلون لأن زملاءهم جرحوا وقتلوا ويريدون الانتقام في اللحظة نفسها. وأنا أعرف أن

(١) يهودا سلوتسكي، **تاريه الهاغناه** (تل ابيب: إصدار عام عوفيد، ١٩٧٢).

شعوباً وجيوشاً أخرى تفعل أشياء كهذه. ولكن من يطلب منهم أن يأتوا ويتفاخروا بمثل هذه الأعمال».

وقد أدلت وزارة المعارف والثقافة بدلوها في تكريس تلك الأراجيف عن حرب فلسطين في ذهنية الطالب الاسرائيلي.

وليس أدل على ذلك من كتيب أرييه ل. أفنيري بعنوان (اسطورة «التشريد الصهيوني») الصادر في العام ١٩٧٥ عن السكرتاريا التربوية في وزارة المعارف والثقافة.

يرتكز الكتيب، أساساً، على أسس دعائية في اتجاه تقديم وجه آخر لممارسات الصهيونية أمام العالم، وهو غير الوجه الذي ظهرت به، وفي اتجاه دفع الطالب الاسرائيلي دفعاً هائلاً لكي يخوض غمار الحرب ضد «العدو العربي» بكل ثقة وبكل إيمان بعدالة الذي يدافع عنه. وأول الأمور التي يتعين الدفاع عنها، تبعاً لمحتويات هذا الكتيب، هو ربط اليهود بأرض المستعمرة (فلسطين). وهم الذين كانوا، عبر مراحل التاريخ، غريبين عن المجتمع الزراعي وعن الاحساس بالأرض. وبالرغم عن دأب المؤلف الواضح في هذا الاتجاه فإن العدمية تظل جزءاً من التكوين الأساس لتسلسل الأحداث والمعطيات لدى هذا الكاتب. ويطغى عنصر الافتعال على محاولات إعادة صياغة «الشعب اليهودي» صياغة روحية ونفسانية، التي ينطوي عليها هذا الكتيب.

وقد صدّرت «السكرتارية التربوية الحكومية» الكتيب بمقدمة تنطلق أحكامها من صلب الفكر الصهيوني العنصري ـ الغيبي فيما يخص «الحق المطلق لشعب اسرائيل في العودة والاستيطان على أرض آبائه وأجداده»[٢]. كما تؤكد المقدمة أن

---

(٢) أرييه ل. افنيري، **أسطورة التشريد الصهيوني** (اسرائيل: السكرتاريا التربوية في وزارة المعارف والثقافة، ١٩٧٥)، ص ٣.

أحكام هذا الكتيب تهدف، أول ما تهدف، إلى تحصين الطالب الاسرائيلي ومربيه بالمعلومات الموثّقة وغير القابلة للتأويل ـ التي يزعمها لنفسه ـ حول «حرب فلسطين»، وذلك لتفنيد الحجج التي يواجه بها الاسرائيلي لدى اطلاعه على الأدبيات العربية عامة وأدبيات منظمة التحرير الفلسطينية خاصة.

ولا يرد ذكر منظمة التحرير الفلسطينية بدون مرادفات غرضية فهي: «ألد أعداء اسرائيل». وهي التي «تحاول أن تضعضع ثقة الاسرائيليين بمسألة عدالة قضيتهم لعلمها بأن هذه الثقة هي من أهم المركبات، التي تنطوي عليها سطوتنا»[٣].

يستهل المؤلف كتيبه بالقول:

«ان الاعتراف بالحق المطلق لشعب اسرائيل في العودة والاستيطان على أرض آبائه وفي العودة والعيش فيها عيشة سياسية وثقافية مستقلة يحتل مكان الصدارة في وعي الشعب منذ خراب الهيكل. والحقيقة هي أن الشعب، منذ الخراب، هاجر إلى هذه البلاد على مر الأجيال، جماعات ووحدانا. وعلى الرغم من ذلك فإنه من الضروري أن نجيب على السؤال التالي: هل ألحقت الصهيونية إثماً بالعرب، الذين أقاموا هنا وشكلوا غالبية السكان خلال مئات السنين الأخيرة! إن الذي سأقصه عليكم بين دفتي هذا الكتيب، بناءً على ذلك، يتعرض إلى أحد الأبعاد الرؤيوية الجوهرية والحساسة لحياتنا. هذا البعد هو المدى الأخلاقي لتطبيق الصهيونية في الممارسة»[٤].

وتبعاً لذلك فإن الأسئلة التي يحاول المؤلف رصد الأجوبة عليها هي أربعة:

---

(٣) المصدر نفسه، ص٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣.

«(١) بما أن العرب مقيمون في هذه البـلاد منذ (١٣٠٠) سنـة فما هو حقنا فيها بعد أن انقطعنا عنها لمدة ألفي سنة؟!...

(٢) ما هي قيمة العلاقة الحسّية والقومية التي تميزنـا مقابـل العلاقة الملموسة، الجسدية والقومية، المتواصلة والتي تميز العرب بشأن هذه البلاد منذ (١٣٠٠) سنة ؟!...

(٣) هل نتمتع بالحق الأخلاقي عـلى الأراضي التي نقيم عليها، سواء جرى اقتناؤها بالمال الحلال اليهودي (الشعبي والخاص) أم كان الشراء مرتبطاً بتشريد الأشخاص الذين عملوا في زراعتها؟!

(٤) هل كان تشريد الفلاح العربي على مراحل من أرضه سبباً في اقتلاع الشعب الفلسطيني من وطنه؟»[٥].

ويتابع المؤلف:

«من أجـل الإجابـة عـلى تلـك الأسئلـة ينبغي علينـا أن نعـود إلى تاريخ أرض اسرائيل قبل مائة سنة، إلى الفترة التي بدأ فيها الإستيطان اليهودي والهجرة اليهودية وما أعقبهما من قيام دولة اسرائيل. ينبغي علينا فحص عدد سكان البلاد واستجلاء مناظرها الطبيعية وجودة أراضيها وهوية أصحاب تلك الأراضي وفيما إذا استثمروها واستيضاح ماهية العلاقة بين الفلاح وأرضه ونسبة إزدحام السكان في البلاد قبل قدوم اليهود إليها بجماعاتهم الكبيرة»[٦].

وفي سبيل ربط اليهود بأرض «المستعمرة» فإن المؤلف يصرّ على إسقاط حق العرب التاريخي في فلسطين ويصر، بالمقابل، على أن

---

(٥) المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦.

لليهود حقاً تاريخياً في فلسطين. ويتجسد هذا الإصرار في التعامل المفرط مع قضايا «الأركيولوجيا اليهودية». كما يتجسد في الإسهاب في ذكر الوقائع اليهودية المؤدلجة بالفكر الصهيوني فيما يخص البنية الاجتماعية للجماهير العربية (لاحظوا تغييب المسألة القومية!) التي أقامت في «أرض اسرائيل»!

وفي صلب تلك الوقائع القول ان «الجماهير العربية» لم يزد تعدادها، طوال ثلاثة قرون عن الـ ٣٠٠ ألف نسمة[٧]. وهذه «الحقيقة» عائدة إلى افتقار هذه الجماهير إلى الروابط القوية بالأرض وإلى انعدام العوامل، التي تجعل منها مجتمعاً قائماً بذاته.

ويذهب المؤلف إلى أبعد من ذلك حين يشير إلى أن أحد العوامل وراء المراوحة العددية لهذه الجماهير يكمن في «النزاعات الدموية بين القرى»! ويضيف أن هذه النزاعات حملت السكان على الهجرة من أراضيهم.

واضح ما تقدم أن تركيز نصوص هذا الكتيب على الحديث حول العربي أو البدوي أو المستأجر وليس العربي الفلسطيني مع التأكيد على افتقار الروابط بين هذا العربي أو البدوي أو المستأجر وبين أرضه هو أمر ذو كثافة دالة. فبما أن الأرض في مثل هذه الحالة هي الوطن. وبما أن العربي يفتقر إلى الروابط القوية بالأرض فإنه يفتقر إلى الروابط القوية بالوطن، ولهذا يتنازل عنه راضياً مرضياً. ومن الأمثلة على ذلك، في الأدبيات الصهيونية التقليدية، شخصية رشيد بك في كتاب ثيودور هرتسل «ألطنويلاند» (الأرض القديمة ـ الجديدة)، التي ترحب بالمشروع الصهيوني وتتنازل عن أراضيها وتندمج فيه.

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٧ ـ ٨.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فـإن هذا العـربي أو البدوي أو المستـأجر متخلف ولا يستحق هـذه الأرض (الـوطن). ففي ظـل إشرافه عليهـا لم يجر استغـلال جميـع الامكـانـات التي تتيحها الأرض. ولا يرجع ذلك، تبعاً لمزاعم المؤلف، إلى العوامل الجيو ـ اقتصادية (مثل ظـروف التربـة والمناخ القـاسي وغياب الاسهـام الايجابي للـدولـة في مجـال الاستثمـارات) إنمـا إلى «العقلية العربية ذاتها»!

جاء في الكتاب: «إن من يتجول اليوم في أنحاء البلاد وخصوصاً الذي يستطلعها من علـو الطائـرة ويشاهـد بأم عينيـه الأغوار والسهول الساحليـة محروثـة وخضراء ومزروعـة بالمستـوطنات ينبغي ألا ينسى ان هذه الأراضي لم تكن زاهية، مثلمـا هي عليه اليـوم، عندمـا امتلكها اليهـود، بل عـلى العكس فجميـع هـذه الأراضي كانت من أسوأ مناطق البلاد. وكانت خاليـة من البشر تملؤهـا المستنقعـات وكثبـان الـرمـال المتحـركـة والمنحـدرات الجلمـودية. وفي تلـك المناطق استثمـر المستوطنـون والشغيلـة اليهـود عملهم وجهـدهم وحصـافتهم وحـولـوهـا إلى جنـائن ومستوطنات مزدهرة»[8].

وحتى عندما يقدم المؤلف تلميحات طفيفـة (لتبرئـة الذمـة) إلى العـوامل الجيـو ـ إقتصاديـة فإن صيـاغته لا تتعـدى حـدود تسفيه «العقلية العـربية» بحيث لا تخـرج تلك التلميحـات عن سياق الفكرة العنصريـة. وفي هذا الصـدد ينقل الكتيب أقـوال كديش لوز، رئيس الكنيست الأسبق، حـول منطقة غـور الأردن و«دغانيا».

يقـول لوز: «كـان المناخ قـاسياً وكـانت الأرض جـدبـاء. وأدى

(٨) المصدر نفسه، ص ١٧.

انتشار المستنقعات وارتفاع درجات الحرارة إلى دفع بعض سكان المنطقة في اتجاه البحث عن مصدر رزق آخر. إنني أقدر ذلك، فعندما أتيت إلى «دغانيا» لم أجد أية شجرة في المنطقة ولم يجر ريّ أي دونم من الأرض. وهذا على الرغم من أنهم (العرب ـ المؤلف) كانوا مقيمين على مقربة من بحيرة طبريا ومن نهر الأردن ومن ينابيع عديدة!»[٩].

إن هذا الموضوع أصعب بكثير من أن يعالج في بضع فقرات. ولكن يمكن الاكتفاء، عند هذا الحد، بذكر مقومين رئيسيين فيما أسلفنا من أحكام كتيب «السكرتارية التربوية الحكومية». يتمثل الأول في الرفض الصهيوني الأعمى للاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني عامة والفلاحين على وجه الخصوص (انطلاقاً من رفض الاعتراف بحقوق الفلاحين التقليدية على الأرض). ويتمثل الثاني في الغطرسة التي تميز بها «المستوطنون البيض» والتي جعلت من «تخلف» الفلاحين الفلسطينيين واستغلالهم «أمراً طبيعياً لا مفرّ منه»!

ويجهد مؤلف الكتيب من أجل إثبات الأحقية الأخلاقية لليهود على أراضي فلسطين عبر تأكيد أن تلك الأراضي جرى اقتناؤها بأموال «الصندوق القومي اليهودي» التابع للمنظمات الصهيونية من الاقطاعيين العرب الغائبين بوجه خاص. ثم ينتقل ليضفي، ولو تلميحاً، الشرعية القانونية والعرفية على جرائم البطش بالفلاحين العرب الذين جرى إجلاؤهم عن الأراضي بعد بيعها. بيد أن هذه العملية إتخذت جانب الاستخفاف بحياة الإنسان لمجرد كونه عربياً، كما سأبين لاحقاً.

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٢١.

صحيح، تاريخياً، ان المنظمات الصهيونية اشترت مساحات شاسعة من الأراضي من الاقطاعيين العرب أيام الحكمين التركي والانتداب البريطاني. وكان أسوأها ما قامت به عائلة «سُرْسُق» البيروتية الاقطاعية في أوائل العشرينات من بيع (٢٤٠) ألف دونم في سهل مرج ابن عامر الخصيب بأبخس الأثمان. وقد جعلت عمليات البيع هذه، التي غالباً ما كانت تشمل قرى بكاملها، الفلاحين يواجهون تجربة إجلائهم عن الأراضي. وثابت، تاريخياً، أن القيادة الصهيونية تعاونت مع الحكم العثماني للبطش بالفلاحين العرب الذين أجلوا عن أراضيهم بعد أن باع الاقطاعيون الأراضي التي كانوا يعملون عليها. وقد كتب أهرون كوهين في كتابه «اسرائيل والعالم العربي» وصفاً دقيقاً لهذه العملية وأبرز أن «مكفيه يسرائيل» والخضيرة والمطلة وغيرها أقيمت بعد إجلاء الفلاحين العرب[١٠].

وهكذا جرى تجريد الفلاحين العرب من أراض، هم، عرفا، أصحابها، ولذا تميزت العلاقة بين العرب وبين «المستوطنين الجدد» بالعدائية! وهل كان من الممكن أن تتميز بغير ذلك؟!

ثم أن العدائية لم تكن ناجمة عن تجريد الفلاحين العرب من أراضيهم فحسب إنما عن التوجه العنصري الفوقي للمستوطنين الجدد ازاء الشعب العربي عامة.

وقد وصف هذا التوجه، الذي لازم بداية الاستيطان اليهودي في فلسطين، المفكر الصهيوني أحاد هعام، الذي لا يمكن اتهامه بحب العرب، في مقالته «الحقيقة من فلسطين»[١١].

---

(١٠) اميل توما، **جذور القضية الفلسطينية** (القدس: منشورات صلاح الدين، ١٩٧٧)، ص ٦٨.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٨٩١.

كتب يقول: «اعتدنا، خارج البلاد، تصديق أن العرب جميعاً وحوش في الصحراء. شعب يشبه الحمار. لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم. ولكنه خطأ فادح هذا الفهم. فالعربي، مثل بقية بني البشر، ذو عقل حاد ومراوغ».

أما مسألة الاستخفاف بحياة الانسان لمجرد كونه عربياً فتبرز في محاولة التقليل من بشاعة البطش وجرائم إبادة الفلاحين العرب بواسطة الحديث عن الضحايا القليلة، نسبياً، التي أسفرت عنها هذه الجرائم.

جاء في الكتيب بهذا الصدد ما يلي: «قامت شركة التحضير للاستيطان بالتحقيق وجمع معلومات مفصّلة حول مكان إقامة جميع المستأجرين الذين كانوا مقيمين في قرى «عيمق يزراعيل» (مرج ابن عامر ـ المؤلف) قبل انتقاله إلى أيدي اليهود. وبموجب هذه المعلومات، التي جرى نقلها إلى الوكالة اليهودية، تبين أن مجموع الذين أقاموا في تلك القرى هو (٦٨٨) مستأجراً. وتبين من الاحصاء الذي أجري في تلك السنة أن (٣٧) شخصاً منهم قد توفوا (لا يذكر الكتيب كيف توفوا متعمدا ـ المؤلف) ومن بين الـ (٦٥١) شخصاً الباقين يواصل (٥٢٦) شخصاً (حوالي ٨١٪) العمل في الزراعة في القرى الواقعة شمالي أرض اسرائيل، أي في المنطقة القريبة من أماكنهم السابقة. وانتقل (٨٤) شخصاً (١٣٪) إلى المدن حيث طفقوا يعملون في الحرف وتجارة الخضراوات والحليب والبناء وما شابه ذلك. ولم يكن ممكناً تحديد أماكن (٤١) شخصاً فقط»[١٢].

ويتساءل المؤلف: «أية حكومة في العالم يمكنها أن تقوم

---

(١٢) افنيري، **أسطورة التشريد الصهيوني**، ص ٢٤.

بمشــاريع تطـوير واسعــة كهذه بضربــات قليلــة للغــايــة بحق السكان الأصليين؟»!

وفي مــوضـع آخــر يعبــر المؤلف عن استغـرابــه البهيمي جـراء الضجة التي «افتعلها» العـرب، حسب قولــه، حول قضيــة بيع أراضي وادي الحــوارث (عيمق حيفــر)، التي كــان يقيم عليهــا «٨٥٠ مستأجراً فقط»! ويسأل أحد شهود العيان: «أمن أجـل ٨٥٠ شخصاً أثيرت ضجة كبيرة كالتي أثيرت؟». ويجيبه شاهد الزور قائلاً: «إنها حقيقة واقعة. كــانوا في البــداية لـوحدهم في المنطقــة. وعندمــا جرى تضخيم القضيــة وتصاعـد التحريض سرعــان ما ظهــر بدو جــدد، من مناطق قــريبة وبعيــدة، وظهــر قرويون من المنطقة القريبة وانضموا إلى أصحاب القضية»[١٣].

ويخلص المؤلف إلى القول انه يتعــين على كــل مواطن اسرائيــلي مخلص للدولة والأمة أن يواجه «مزاعم الفلسطينيين بالانتمــاء إلى أرض فلسطــين باسقــاطها كليــاً. فكمــا أن أجـداد العــرب غادروا بلاداً عربية أخرى أو أية منطقة عربيــة أخرى وجــاؤوا للسكنى في الأماكن التي تقوم عليها اليوم دولــة اسرائيل فــإنه ليس اقتلاعاً قومياً أن يعود أحفاد المستــوطنين العــرب من تلك الفترة إلى أراضي آبائهم في بلادهم الأصلية»[١٤].

لكن «ادلاء» وزارة المعارف والثقافة لا ينتهي عند هذا الحدّ!

■ غسل دماغ الطلبة اليهود بواسطة المسرح

يخضـع موقف أي إنسان أو أية فئة تجاه الغير إلى تأثيرات عدة عوامل. أحد هذه العوامل، ولعله أهمها وصاحب التأثــير الأكثر

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٤٠.

قوة ونفاذاً، هو «الفكرة المسبقة» أو ما تـواضع علم الاجتمـاع البـرجوازي عـلى تسميته بـ «القـولبة» (الستـيريـوتيب) وقـد تصدى، أكثر من تصدى، لشرح «القولبة» واسقاطاتها السلبية عالم الاجتماع الأمريكي اليوت أرونسون[١٥].

ومـع أن علم الاجتماع البـرجوازي حـاول تغييب السلبيـة عن «القولبة» بوصفها اتجاهاً تشيؤياً مجرداً مشيراً إلى أنها غـالباً مـا تشكـل متكـأ أو وسيلـة حسن تخلص لتبسيط النظـرة إلى العالم، لا بساطتها، إلا أنه أكد أن غالبية القولبـات لا تتأسس على تجربة ذات مصداقيـة بل عـلى تقولات أو تشـويهات تمس الشخصيـة الانسـانيـة تسيطـر عـلى الألبـاب لتبـريـر بعض التصرفات أو الأفكار المسبقة»[١٦].

إن القـولبـة التي تعمـي البصر والبصـيرة ـ حسبمـا يقـول أرونسـون ـ حتى لا تجعل صـاحبها يـرى إلى الفروقـات بـين إنسان وآخر في التشكيلة الاجتماعية نفسها تنطـوي على خطـر مريع.

ويضيف: «من المريح لنا (في الولايات المتحدة ـ المؤلف) التفكير بـأن الزنـوج بلهاء لأن ذلـك يبرر واقـع أننا نضعهم في حَجْـر ثقافي. كذلك من المريح التفكير بأن النساء من ناحية بيـولوجيـةً وجـدن للعمل البيتي الـذي يبعث على الملـل عندمـا نـريـد أن نقيدهن إلى شفاطـة الغبار. في مثـل هذه الحـالة يكـون التفكير المقولب عامداً إلى الإذلال»!

إن «الفكرةالمسبقة» و«القولبة» همـا في صلب الفكر الصهيـوني

---

(١٥) اليـوت أرونسون، **الجنس البشري: تحسـين العـلاقـات البشريـة** (تـل أبيب: إصدار سفريات بوعليم، ١٩٧٧)، باللغة العبرية.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٢.

القومي الجامح. وهذا ما يقرّ به غالبية الباحثين الاسرائيليين. بيد أن إقرارهم لا يتجاوز الفكر الصهيوني القومي الجامح ذاته بل يغرق فيه. كيف؟ ـ يؤكد هؤلاء الباحثون أن «القولبة» تجاه العرب تقابلها «قولبة» لدى العرب تجاه اليهود، مساوية لها وموازية.

يقيناً أنه ما من انسان محصن ضد الوقوع، بهذا القدر أو ذاك، تحت تأثير «الفكرة المسبقة» أو «القولبة»، بمن في ذلك العرب. بيد أن الباحثين الاسرائيليين يحاولون، في مواجهة نوع من توبيخ الضمير، التملّص من الحقيقة الدامغة بأن شعبهم يضطهد شعباً آخر بواسطة المساواة بين القاتل والضحية بحيث تختلط الأسباب بالنتائج وتتوزع المسؤولية على الطرفين. وهذا ما يفسر توكيد القولبة لدى العرب تجاه اليهود لدى التصدي لفضح أخطار القولبة لدى اليهود تجاه العرب.

ونادرة هي النتاجات الاسرائيلية، التي تحررت كلياً من «القولبة».

بيد أن هذه الحقيقة لا تنفي وجود عدد من الأدباء حاول في نتاجه أن يتحرر من «القولبة» باتجاه التعامل مع شخصية العربي بوصفها ذاتاً إنسانية. ولكن محاولة هذا البعض لم تحقق الهدف المنشود. وقد لاحظ الأديب التقدمي الراحل مردخاي أبي شاؤول هذه الظاهرة وعزاها إلى جو الغربة الذي يسود العلاقات بين الشعبين. ويطيب لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونتساءل: ما هي مصادر هذه الغربة؟! في اعتقادنا أن الشعور بالغربة لدى الكاتب العبري ناجم عن الثقافة الصهيونية وعن الفكرة الصهيونية التي تقف جداراً مظلماً بينه وبين جاره العربي.

في لاوعيه ـ إن لم يكن في وعيه التام ـ يحسّ الكاتب العبري

المعبّأ بالثقافة الصهيونية ان وجوده على هــذه الأرض يتناقض أســاساً مــع وجود العــربي. ويدرك أن ذلــك يتم عــلى حســاب العربي. ومن هنا يبدأ في ذاته الصراع الحاد: مع ذاته من جهة ومع ذلك العربي من جهة أخرى.

وفي هــذا الإطــار تــأتي مسرحيــة «أســـود ـ أبيض ـ رمــادي» لشمعــون ريكلــين، التي سنتعــرض إليهــا هنــا. وقــد عُــرضت المسرحية أمام طلبة المدارس اليهودية من قبــل «مسرح الأطفال والشبيبــة» التابــع لرابطــة تطويــر الثقافــة المنبثقــة عن وزارة المعارف والثقافة ووقعت بين أيدينا نسخــة من هذه المسرحيــة، لغرض هذا البحث.

تحكي المسرحية، بكثير من الحدة والإرتجال وبقليل من التركيــز والتحليل، قصة العلاقات اليهودية ـ العربية في اسرائيــل. وذلك عبر بطليها أنيس زيدان ودافيد ميخائيلي. وهما بطلان في لعبــة الشطرنج. وتدور أحداثهــا عشية اللقــاء بينهما للفــوز ببطولــة البلاد التي تعني أن يحظى الفائز بشرف تمثيل البلاد في بطولة العالم التي ستجري في سويسرا.

وتتخذ المنافســة بينهما طــابع الصراع القــومي بفعل تــأثيرات داخلية وخارجية. وفيما هما يستعدان تقــع حادثــة سير يكــون ضحيتهــا البطلان. ويــرقدان عــلى أثــرهــا في المستشفى لتلقي العلاج. ومع استطالة مدة العلاج وتعــذر شفائهمــا التام تقــرر إدارة لعبة الشطرنج تعيين بديلين عنهما. وتنتهي المسرحية بأنه من الأجدر بهما قبل أن ترنو أنظارهمــا إلى بطولــة العالم فيمــا وراء البحار أن يحلا المشــاكل فيمــا بينهما عــلى بطولــة البلاد (الصراع القــومــي). والأجــدر أن تبقى الصــورة كمــا هــي، بسوادها وبياضها وأن يزال عنها اللــون الرمــادي فهو ممــا لا طاقة لها به.

إذن فالكاتب ماض الآن في طريق حلّ المشاكل الداخلية بين العرب وبين اليهود في اسرائيل. بيد أنه في وصوله إلى هذه النقطة لم يمض وحيداً. ثمة شخصيات رافقته في هذه الرحلة. هناك والدا أنيس وشقيقه كريم. وهناك نشيد «هتكفاه» وشايلوك (البطل اليهودي في مسرحية شكسبير «تاجر البندقية»). وعليه فمن الطبيعي أن تجرى حوارات وأن تعلن مواقف وأن يتم تبادل الآراء ووجهات النظر بين هذه الشخصيات مجتمعة وفي مختلف المسائل التي تهمها وبالأساس العلاقات بين العرب واليهود.

وفي هذا الخضم الكثيف وقع الكاتب في مطبات قولبية عنصرية عديدة سأحاول تبيانها فيما يلي:

■ الأفكار المسبقة

مع أن الكاتب يحاول إبراز الأبطال العرب واقعين تحت تأثير الأفكار المسبقة إزاء اليهود، إلا أنه يبدو جلياً، لدى الانتهاء من قراءة النص، أن الأبطال اليهود خاضعون للأفكار المسبقة إزاء العرب بشكل يفوق أي تصور. والخطير هنا أن الكاتب يورد هذه الأفكار بوصفها تحصيل حاصل للمواقف التي يتبناها أصحابها عبر الحوارات.

وهكذا تتردد كثيراً عبارة «عربي منتن» أو «العربي الغريب»، دون أن يرى الآخرون أية غضاضة في ذلك. وعندما يتم اللقاء بين العرب وبين اليهود في المستشفى يحاول الكاتب أن يصور الوضع وكأن الطرفين يتمنعان عن التقارب والتعارف (أعرف بأنه ليس لديكم مزاج للتعارف ـ تقول المرضة اليهودية). إن هذا الموقف بلغة السياسة البسيطة، هو تزييف للواقع فضلاً عن كونه تجسيداً لفكرة مسبقة جاهزة عن العرب. فالواقع يظهر أن غالبية الجماهير اليهودية تعارض التقارب بتأثير من

الفكر الشوفيني في حين أن غالبيـة الجماهـير العربيـة العظمى تؤيده تعبيراً عن تأييدها للسلام العادل والواقعي.

■ قولبة شخصية العربي

ويظهر ذلك في غالبية النصوص التي تغمط، عن عمد، حق هـذا العربي في أن تكون له أصول وأبعاد وانتماء قـومي! فالانتمـاء الملزم هو الانتماء الديني. ويظهر في موقف البطـل اليهودي وفي موقف البطل العربي. فلدى اللقاء بين والـدة دافيد وبـين والد أنيس يجري بينهما الحوار التالي:

- السيدة ميخائيلي: - هل قريتكم بعيدة عن هنا؟!

- السيـد زيدان: - نعم. انهـا تقع في الشمـال. كفر عـاطف. هـل تعرفينها؟!

- السيدة ميخائيلي: - انها قرية درزية، أليس كذلك؟!

- السيـد زيدان: كـلا. لا يعيش دروز عنـدنـا. هنـاك مسيحيـون ومسلمون فقط. (تهم أن تسأله) ونحن مسلمون[١٧].

وهموم العربي، بموجب المسرحية، لا تتعدى حدود هذا الانتماء الديني. وكأنه غير واقع تحت طائلة التمييز والاضطهـاد وغياب السلام ولا يحزنـون. ويمثل عـلى ذلك الحـوار التالي بـين بطلي المسرحية:

- دافيد - ما هي مشكلتك؟! ماذا تريد؟

- أنيس - لا شيء خاصاً. أريد أن أحيا بهدوء. أن أنهي الثانـوية بهدوء. أن أتعلم في الجامعة بهدوء. وأن أعمل بهدوء[١٨].

---

(١٧) ريكلين شمعون، **مسرحية أسود، أبيض، رمادي**، ص ٦.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٧.

وليست العدمية القومية فقط هي ما تميز العربي. فمن الواضح أن بطل المسرحية المحوري هو اليهودي. وهناك رفض خفي لشراكة أية شخصية من «الأغيار» (الغوييم) إلا بحدود تبعيتها له واستكانتها لحمايته. وهذه الاستكانة تقود العربي إلى المشاركة في إنشاد «هتكفاه» (النشيد القومي الاسرائيلي الذي تغلب عليه المسحة الصهيونية من ألفه إلى يائه).

■ المساواة بين القاتل والضحية

إن هذه المساواة، التي تفتقد إلى أدنى حدود المنهجية، هي الطابع الغالب على المسرحية، نصوصاً وشخوصاً. فعيدو اليهودي الذي «لا يستطيع أن يتفوه بجملة عبرية مفيدة دون أن تحتوي على عبارة عربي منتن أو مفسود»[19] والذي يعتقد بأن العرب «غرباء عن هذه الديار»[20] والذي يتفجر نقمة جراء معاملة العرب بقفازات حريرية، مما جعله يعد أطروحة جامعية حول «حقوق عرب إسرائيل وواجباتهم أبان الانتداب مقارنة بحقوقهم وواجباتهم في دولة إسرائيل»[21]، عيدو هذا يقابله كريم العربي. بيد أن كل جريرة كريم هنا هي أنه «يناضل من أجل المساواة»[22]. إن الهدف الأساسي لهذه المساواة هو الدعاية لدى الجماهير العربية في اسرائيل من أجل تغيير سياستها والتوقف عن النضال ضد المساواة. فكما أن اليهود في المسرحية يناضلون ضد عيدو وأفكاره الهدامة كذلك ينبغي بالعرب أن يناضلوا ضد كريم و«أفكاره الهدامة» ويصبح

(١٩) المصدر نفسه، ص ١.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٧.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١١.

نضال العرب هنا نضالاً ضد أنفسهم، ضد حاضرهم وماضيهم ومستقبلهم، مع ما يرتبط بذلك من تسفيه لنضالهم الديمقراطي. ولنمثل على ذلك بهذا المقطع:

- السيد زيدان: - تعرف أنني لا أعارض الحركة (حركة النضال من أجل مساواة العرب في الحقوق - المؤلف) لكنني أريدك أن تفهم بأنه لا جدوى من جلوسك مع أصدقائك والصراخ حول سوء أوضاع العرب.

- كريم: - اننا لا نفعل ذلك، يا أبي..

- السيد زيدان: - ربما ليس ما قلت حرفياً.. ولكن لن يكون أحد معنياً بما تريد إذا لم يعرف من أنت..

- كريم: - وكيف يمكنهم أن يعرفوا؟!

- السيد زيدان: - اهتم بأن يعرفوا!

- كريم: - من السهل إصدار هذا الحكم.

- السيد زيدان: - طبعاً من السهل القول. من السهل أيضاً الجلوس في تخشيبتكم والتكلم، والتكلم فحسب، مثل عجائز القرية..[٢٣].

■ تسفيه العادات العربية

تقف في مركز «القولبة» العنصرية تجاه العرب رؤية رجعية في تبرير التفاوت الحضاري للمجتمعات على أساس إنتماء الشعوب إلى أجناس «عليا حضارية» وأخرى «دنيا متخلفة». وتلك الرؤية هي سمة مميزة لهذه المسرحية. ويجري التركيز في إطارها على طبيعة العلاقة بين الجنسين، التي تعتبرها مقياساً

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٢.

لرقيّ المجتمعات وتطورها. فبينما ينطلق البطل اليهودي، بحرية متناهية، لمارسة علاقاته نجد البطل العربي متبرماً بضيق فسحة المناورة بحرية في هذه المسألة.

ويزيد من تبرمه واقع حريته في إقامة علاقة مع الفتيات اليهوديات وعدم تجرؤه على «محادثة الفتاة العربية» ـ كما يقول كريم[٢٤].

لعله من التجني الحكم، في التصدي لهذه المسألة، بأن العلاقات بين الجنسين في المجتمع العربي مبنية على أسس سليمة منعتقة من الرواسب الرجعية. بيد أن التعميم الفجّ في المسرحية إنما يقصد به تبرير التفاوت الحضاري بين المجتمعين، اليهودي والعربي، على أساس «مجتمع علوي» و«مجتمع دوني».

بداية يظهر جهد المؤلف في انتهاج خيارات تبدو للكثيرين بريئة حد الطفولة، ذكية حد الإبتكار، تبتعد عن السؤال والمشاكسة.. خيارات تلغي الإستفسار وأدواته (كيف ولماذا وأين) وتعوضه بسحر التطهير الشامل وفعاليته في تصفية انفعالات الخوف والكراهية والحذر وهلمجرا.

بيد أن هذه المسرحية لا تلبي، بأية حال، الإجابة الكاملة حول الإشكالات الحياتية والإجتماعية والسياسية للعرب واليهود في البلاد إلا بالقدر الذي يريده السيناريو المعمول. واختيار مفاهيم مثل الدين والتاريخ والحب والجنس والموت يرتبط بالتزام أو توجه مسبق أحادي الصورة.

وبموجب هذه الأحادية تتعمق في نفوس طلبة المدارس اليهودية،

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٨.

الـذين يشاهـدون المسرحية، الأفكـار المسبقة والقـولبـات إزاء العرب، التي هي كما أسلفت في صلب الفكر الصهيوني القومي الجامح.

جذور العنصرية الصهيونية

كثيـراً ما يتجسـد المـوقف العنصري في الأدبيـات الإسرائيليـة المؤدلجة بالفكر الصـهيوني في إعـلان العداء السـافر لـلإنسان لمجـرد كونـه منتمياً إلى الشعب الـذي جابهتـه الصـهيونيـة في ممارساتها العملية في فلسطين. وتترتب على هذا المـوقف قولبـة شخصية الإنسان العربي بحيث يمكن أن يكون كل شيء سوى أن يكون ذاته.

وتلـك القولبـة تسبق الخيارات التي تتبعهـا هذه الأدبيـات من أجل تبرير الموبقـات التي يجري إرتكـابها بحق هـذا الإنسان. وثمـة العديـد من الأمثلة الحيـة على ذلـك. وبشكـل خـاص في قصص الأطفال التي تضطلع بدور كبير في التثقيف العـام بهذا الاتجاه.

وتجهـد الأدبيات، سعيـاً وراء التبـريـر، إلى انتهـاج خيـارات مصنوعة بإحكام وإلى تقديم طروحـات عجيبة غـريبة حتى لـو تطلب الأمر كسر القواعد المنطقية البسيطة المتعارف عليها. وفي ضوء ذلك نصادف في غالبية تلك الأدبيـات إلغاء لمـا هو منطقي ولما يترتب عـلى توالي الأحـداث من نتاج (يتجسـد هذا الأمـر، مثـالاً، في النتاج الأدبي الإسرائيـلي الـذي تعـرض إلى انتقـال الشعب العربي الفلسطيني الصعب والموجع إبان كارثة ١٩٤٨ من وضعية إلى أخرى. وفي النتاج الذي وصف كيفيـة مجابهـة الشعب الفلسطيني لمـارسـات الصهيـونيـة العمليـة ضـده). ويستعاض عن النتائج المنطقية بالمتقابـل أو المتوازي منهـا لأن اللاترابط، في عرف أصحابـه، يعطي قدراً أكبـر من الحريـة في

تـوليف «المغامـرة» (المشروع الصهيـوني) وفي تلفيقهـا ويعطي سمة أشمل من الأسطورية.

وكمـا بينت في الصفحـات السـالفـة فـإن النمـاذج الأدبيـة الإسرائيلية، ذات التوصيفات المشار إليهـا آنفاً، لا تلبي حـاجة الإجابة الكـاملة حـول الإشكالات الحيـاتية أو الاجتمـاعية أو السياسية أو الفلسفية لبطلها العـربي ـ وهي أمور لا قبـل لها بها ـ إلا بالقدر الذي يـريده السينـاريو المعمـول. وإن اختيار مفاهيم مثل الدين والتاريخ والحب والجنس والموت، نـاهيك عن الصراع القومي، يرتبط بالتزام أو توجه مسبق أحادي الصورة. فـالتاريـخ والدين مثـلاً في قصص الأطفال التي يكتبهـا أفنـير كرميلي أو عيـدو سيتر وأشبـاههما وقف عـلى البطل اليهـودي وتفضيلاته، أما التاريخ والدين المضادان فمرتبطان بالشياطين والسحر والشعوذة والدجل.

ولا يقـل فظاظـة عن هذا التـوجه المسبق، الأحـادي الصـورة، اتجاه تبرير قتل الإنسان ـ العدو بدافع «الانتقام». والعالم كله كان شاهـداً، في الحادي عشر من شهـر آذار ١٩٨٥ على هـذا الاتجاه الذي حاول حكام اسرائيل بواسطتـه أن يلقموا شعبهم حجراً لتبرير مجزرة «الزرارية» في الجنوب اللبناني المحتل.

والسؤال: إلى أي مـدى تشكل الصهيـونية عـاملاً مؤثـراً عـلى السير في هذا الاتجاه؟!

إن الفكـر المتـوحش والنظـرة الـعنصريـة همـا في صلـب الأيديولـوجية الصهيـونية حسبمـا صنفها مؤسسـوها وكِبـار زعمـائها. وحسبمـا مارسهـا حكام اسرائيـل ولا يزالـون ضـد الشعـوب العـربيـة، وبشكـل خـاص ضـد الشعب العـربي الفلسطيني. وحسبمـا جسّـدهـا الأدبـاء المعبـأون بـالثقـافـة الصهيونية في «الوثيقة الأدبية الإسرائيلية».

وقد بين الدكتور اميل توما[٢٥] أن الصهيونية استقت منابعها الفكرية، وبالأساس الموقف العنصري، من مصدرين جوهريين: الأول ـ الأيديولوجية البرجوازية، التي تنتسب إليها منذ البداية. والثاني ـ الدين اليهودي ومصدره «التوراة»، وهو ما نحن بصدده فيما يلي:

لقد انطلق كاتب قصص الأطفال شراغا غفني في صياغة مقومات «التوراة» عبر مسلسله الرائج «عالم التوراة للطفل» من قبول العنصرية، تماماً مثلما انطلق مؤسس الصهيونية ثيودور هرتسل، في صياغة مقومات أيديولوجيته، من قبول العنصرية واعتبارها عاملاً مقرراً. ولهذا اتخذ منها موقفاً إيجابياً ومتسامحاً. فكتب: «إن سلامنا ورفاهنا بوصفنا يهود يضعفاننا ويطمسان عزلتنا. والضغط فقط يبقينا ملتصقين بعرقنا القديم. وكره ما حولنا يجعلنا غرباء مرة أخرى»[٢٦].

والمفكر الإسرائيلي أهرون ميغد أكد في احدى المناسبات أن منابت العنصرية في ظاهرة الكهانية كامنة، قبل ظهور كهانا على المسرح السياسي، في بعض نصوص الديانة اليهودية ومصدرها «التوراة». وفي سبيل إثبات ذلك أعاد إلى الأذهان فقرات من المزمور المئة والسابع والثلاثين (من سفر «المزامير» في «التوراة») والذي مطلعه «على أنهار بابل» والذي جاء في ختامه: «يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءنا الذي جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة». وتساءل: ما هو الإثم الذي ارتكبه الأطفال كي نضرب بهم الصخرة[٢٧].

---

(٢٥) اميل توما، **الصهيونية المعاصرة: دراسات** (عكا: منشورات الأسوار، ١٩٨٢).

(٢٦) ثيودور هرتسل، **كتابات هرتسل**، (بالعبرية) مج ١، ص ٣٢.

(٢٧) أهرون ميغد، «قضية كهانا وما يحف بها،» في: **دفار**، ١٩٨٤/٨/١٧.

إن «الانتقـام» أو «العقاب الجمـاعي»، الذي يـدعو إليـه هـذا المزمور، ينطوي على فكرة عنصرية ـ حيوانية وعلى نظرة دونيـة إلى الشعـوب، فضـلاً عن كـونـه يـزين الاستخفـاف بحيـاة الانسان ـ العدو لمجرد كونه انساناً. وتحفل نصـوص «التوراة» بمثـل هذه «الفكـرة» وتلك «النظـرة». وهما تتمثـلان، أكثر مـا تتمثلان في سفر «استير» الذي سنتوقف عنده بقدر مناسب من الشرح والتفصيل.

واتجهت في التركيز على الماضي بوصفه مـادة خام. بيـد أن هذا الامتحان للماضي بمقـاييس عصرنا يـأتي لغرضيـة توكيـد أنه حاضر في عالم اليوم.

من المعروف أن هذا السفر يحكي خلفية عيـد «الفوريم» (عيـد المساخر)، الذي يحييه اليهود بوصفه عيداً استراحوا فيـه من أعدائهم وشهرا «تحول عندهم من حزن إلى فرح ومن نـوح إلى يوم طيب»[٢٨].

و«الفوريم» نسبة إلى الفور أي القرعة ـ حسبما جاء في السفر: «ولأن هامان بن همداثا الأجاجي، عدو اليهود جميعاً، تفكر على اليهود ليبيدهم. وألقى فوراً أي قرعة لإفنائهم وإبادتهم»[٢٩].

وخلاصته أن الملك أحشويروش، الذي ملك من الهند إلى كـوش عـلى مئـة وسبـع وعشرين كـورة، أمـر كـل عبيـده أن يجثـوا ويسجـدوا لهامـان بن همداثـا الأجاجي بعـدما عظمـه ورقّاه، وجعـل كرسيـه فوق جميـع الرؤسـاء الـذين معـه. فكـان كـل عبيد الملك، الذين بباب الملـك، يجثون ويسجـدون لهامـان لأنه هكـذا أوصى به الملـك. وكان يعيش في تلـك الأيام رجـل يهودي

---

(٢٨) كتاب التوراة، «سفر استير،» الاصحاح التاسع، الفقرة (٢٢).

(٢٩) المصدر نفسه، الاصحاح التاسع، الفقرة (٢٤).

اسمه مردخاي. وكان مربياً لأستير، ابنة عمه، لأنه لم يكن لها أب ولا أم.

وتقول الحكاية أن أستير نالت نعمة أمام الملك أكثر من جميع العذارى فوضع تاج الملك على رأسها وملكها.

ورفض مردخاي اليهودي أن يسجد لهامان أو يجثو له «ولما رأى هامان ان مردخاي لا يجثو ولا يسجد له امتلأ غضباً. وازدرى في عينيه أن يمد يده إلى مردخاي فطلب هامان أن يهلك جميع اليهود، الذين في كل مملكة احشويروش، شعب مردخاي[٣٠].

وأيد الملك هامان في كل ما ابتغى. وبلغ الأمر أستير الملكة. فتحايلت على الملك حتى بلغ حبه لها مبلغاً سمح لها بأن تفضي إليه بأن الشعب الذي يبتغي هامان إفناءه هو شعبها. وفي تلك الأثناء يعلم الملك بأن الذي أثار حنق هامان (مردخاي) أنقذه من غدر حارسين طلباً أن يمدا أيديهما إليه. فأمر بأن يصلب هامان وبنوه على الخشبة (الخازوق) التي أعدها بارتفاع خمسين ذراعاً لصلب مردخاي عليها. وأطلق أيدي اليهود في الانتقام من أعدائهم. وهكذا كان.

لقد أريد من مردخاي في هذا النص أن يربط المعادلة صحيحة بين بعده اليهودي وبين بعده الأسطوري ـ الخارق. وأن يحمل ضمناً تلك الشهادات والانبعاثات المتكررة لفكرة الخلاص اليهودية.

وإن فكرة «التخليص»، التي يصر عليها هذا البطل اليهودي، لا تنطلق من مفهومي الخير والشر بقدر ما تنطلق من المفهوم الحضاري لشخصية مردخاي وكفاءته وميزاته العقلية

(٣٠) المصدر نفسه، الاصحاح الثالث، الفقرتان (٥ ـ ٦).

والجسدية ودراياته ودهائه. تلك الشخصية المحصنة ضد الاستلاب، التي تقفز على كل الموجود ولا تتوانى عند القيادة. فهو الذكاء مجسداً ضد العجز والاتكال. وهو يلغي المجموع عندما يتبوأ القيادة: «كل رؤساء البلدان والمرازبة والولاة وعمال الملك ساعدوا اليهود لأن رعب مردخاي سقط عليهم. ولأن مردخاي كان عظيماً في بيت الملك. وسار خبره في كل البلدان. ولأن الرجل مردخاي كان يتزايد عظمة»[٣١].

وتقف إلى جانب هذه السمات السوبرمانية الميتافيزيقية للبطل اليهودي، مساوية لها وموازية، نظرة دونية إلى الشعوب الأخرى. وترمي هذه النظرة إلى تبرير الانتقام بحق هذه الشعوب. ويسهب السفر في سلسلة الضربات الإنتقامية الجماعية الموجعة التي وجهها اليهود إلى الشعوب الأخرى بجريرة هامان الشخص ـ الفرد.

جاء في السفر: «فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك. وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا. وقتل اليهود في شوشن القصر وأهلكوا خمسمائة رجل.. وعشرة بني هامان بن همداثا عدو اليهود قتلوهم». وبعد ذلك أوعزوا إلى أستير أن تطلب اذن الملك بصلب بني هامان العشرة على الخشبة (الخازوق).. «فأمر الملك أن يعملوا هكذا. وأعطي الأمر في شوشن. فصلبوا بني هامان العشرة»[٣٢].

لكن الشهوة للانتقام الحيواني لم تتوقف عند هذا الحد. فقد شكل قتل الخمسمائة رجل وبني هامان العشرة (والتمثيل بجثثهم بعد قتلهم بواسطة صلبهم) مفتاحاً لعمليات انتقام

(٣١) المصدر نفسه، الاصحاح التاسع، الفقرتان (٣ ـ ٤).

(٣٢) المصدر نفسه، الاصحاح التاسع، الفقرات (٥ ـ ١٨).

جماعية أشد وحشية وفظاظة وحيوانية أورد السفر وصفها كما يلي:

«ثم اجتمع اليهود الذين في شوشن، في اليوم الرابع عشر أيضاً من شهر آذار، وقتلوا في شوشن ثلاثمائة رجل. ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب، وباقي اليهود الذين في بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم واستراحوا من أعدائهم. وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً. ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب، في اليوم الثالث عشر من شهر آذار واستراحوا في اليوم الرابع عشر منه وجعلوه يوم شرب وفرح. واليهود الذين في شوشن اجتمعوا في الثالث عشر والرابع عشر منه. واستراحوا في الخامس عشر وجعلوه يوم شرب وفرح»[٣٢].

وتلك النظرة الدونية استتبعت نظرة دونية إستعلائية إلى الإنتماءات القومية والدينية للشعوب الأخرى. وتمثل ذلك في السفر عبر تصوير هذه الشعوب تتخلى بسرعة عن إنتماءاتها المختلفة وتعلن تهودها «لأن رعب اليهود وقع عليها».

لقد حضرتني هذه الوقائع في مواجهة الاستغراب، الذي استحوذ على بعض المفكرين اليهود، جراء تفشي المظاهر العنصرية في إسرائيل في الثمانينات والتي بلغت الذروة في انطلاق مارد الكهانية من عقاله. إن هذا الاستغراب هو أشبه بالعبث ذلك أن منابت العنصرية قائمة، قبل تفشي مظاهر الثمانينات، في بعض نصوص الديانة اليهودية التي التجأت إليها الأيديولوجية الصهيونية. وهذا ما حاولنا أن نبين بعضاً منه في هذه العجالة.

إن حصيلة ما تقوله المعطيات والنماذج السالفة لا نجد تفسيراً

(٣٢) المصدر نفسه، الاصحاح التاسع، الفقرات (٥ ـ ١٨).

لها إلا في احتواء الثقافة الإسرائيلية الرسمية ذاتها، ومن ثم الوعي الاسرائيلي برمته، من قبل السياسة الصهيونية. أو بمعنى آخر في تحويل هذه الثقافة وذلك الوعي إلى أدوات في معركة تلك السياسة وحرمانهما لهذا السبب من أية أصالة ذاتية أو استقلالية.

٢

في صياغة إدراك الأطفال الاسرائيليين بواسطة الثقافة العنصرية

أكثر من باحث أدبي إسرائيلي أمسوا يدركون، في ضوء أحداث السنوات الأخيرة، ان استمرار الإحتلال الإسرائيلي وانعدام أية تسوية سياسية في الأفق المنظور، بجريرة حكام إسرائيل، يؤديان إلى ازدياد نفوذ العناصر المتطرفة، من أمثال كهانا، وإلى تفشي الروح الفاشية في المجتمع الاسرائيلي، الأمر الذي سيؤدي، بدوره، إلى تصعيد عمليات القمع والاضطهاد، المتصاعد أصلاً، ضد الشعب العربي الفلسطيني. هذه العمليات التي قد تصل، بل أنها وصلت في بعض الأحيان، إلى حد القيام بإجراءات ترحيل جماعي ضد الفلسطينيين في الأرض المحتلة.

ووصل الإدراك السالف لدى أحد الباحثين، البروفيسور شاؤول فريد لندر، حدّ التوجس خشية أن تتكرر النازية، أيديولوجية وممارسة، في سنوات الثمانينات بنسخة محددة يهودية اسرائيلية، قلباً وقالباً.

قال، في مقابلة أجرتها معه صحيفة «دافار» عشية «رأس السنة العبرية» الجديدة في أواسط أيلول ١٩٨٥: «ينبغي أن يكون ماثلاً أمام أعيننا دوماً تطور النازية على مراحل، وبصفة خاصة «قوانين نورنبرغ»، وكذلك الحقيقة التي لا تدحض بأنه كان من

الصعوبة بمكان إستشراف نهاية تلك العملية السياقية. ففي ظل سياسة تضطهد وتلاحق مجموعات أثنية (عرقية) يستطيع المرء أن يعرف دوماً أين يبدأ ذلك. ويمكنه أيضاً تقدير المرحلة الراهنة التي ينوجد في خضمها. غير أنه من الصعب رؤية نهاية السبيل. فثمة دينامية هنا يستحيل التنبوء بنهايتها».

ومعقباً على استطلاعات الرأي الأخيرة، التي أشارت إلى «صعود نجم» الفاشي مئير كهانا، ورافضاً مضغ «اطمئنان» البعض بأن النازية يستحيل أن تتكرر بنسخة يهودية لمجرد أن اليهود كانوا «أكثر الملسوعين بها» يعلن فريد لندر:

«نحن (يقصد الاسرائيليين) لسنا محصنين بما فيه الفكاية. فإن استطلاعات الرأي تلك تثير الخوف. ويجوز أن تلك الاستطلاعات تميل، بتقصد بالغ، إلى المبالغة في الاتجاه السلبي. بيد أننا مجتمع يفتقر إلى التقاليد الديمقراطية ذات الجذور العميقة».

إن التطرف والعنصرية في مجتمع الدولة العبرية، إذن، لم يخلقا من عدم، كما قلنا وكما بات بعض الباحثين يدرك مجاهرة. فهما موجودان لأسباب سياسية ـ أيديولوجية في المقام الأول. ولكنهما قد يخبوان وقد يشتطان تبعاً لما يصيب تلك الأسباب من تدهور ومن «ازدهار».

وأخطر مظاهر العنصرية ليس في ممارسة الناس الاسرائيليين اليومية أو في تقاعسهم عن بذل الجهد لوقف «الجينو سايد»[1] على النسق الإسرائيلي ضد الشعب الفلسطيني، قمعاً وتنكيلاً واختلاساً وسرقة ونصباً، على ما في كل ذلك من خطورة لا يستهان بها. ولكن أخطر مظاهر العنصرية هو في كونها «ثقافة» تحدد نمط أو أسلوب حياة المجتمع الاسرائيلي.

---

(١) «الجينوسايد»: تعبير يقصد منه سياسة إبادة عرق وشعب أو مجموعة أثنية.

فلكي يضمن الكيان الاسرائيلي وجوده السياسي الجائر، على حساب الشعب الفلسطيني، أرضاً وكياناً ووجوداً وحقوقاً، فإنه أرسى ويرسي ثقافة عنصرية. ولكي يجرد مواطنيه من أية هوامش إنسانية، بسهولة أكثر و«بهدوء» أكثر، فإنه لا يضع الأغلال التي تكبل انسانيتهم في أيديهم أو في أقدامهم فحسب، وإنما يضعها في «منبت رؤوسهم».

وعن طريق ذلك تدير الصهيونية عملية إدراج ناسها كمحركين (بفتح الراء) في الممارسات الاجتماعية المختلفة في المواقع المختلفة التي تحددها. وكذلك عن طريق وضعهم في قالب نفساني وثقافي واحد مع ما تتطلبه مهامهم وأدوارهم.

يتضح، على ضوء ما تقدم، أن الوظيفة الأساسية للثقافة في إسرائيل مشوهة بشكل خطير. وهذا التشويه شامل ومؤثر على كل المجتمع.

وهكذا ينشأ نمط معين من الإدراك والتفكير يتولد تلقائياً من مسائل، أشبه بالبديهيات المسلم بها، راسخة في العقل.

ولعل أكثر «ميزان» يفحص النمط المعين السالف من الإدراك والتفكير هو الموقف السالف من الإنسان العربي. فإن هذا الموقف يتربى عليه كل يهودي إسرائيلي منذ الصغر، ويكبر معه ويتكرس بتأثير من الواقع السياسي الاسرائيلي الرسمي كذلك.

فما هي أحكام هذا الموقف وكيف تتولد، تلقائياً، لدى الأجيال الفتية؟!

هذان السؤالان هما موضوع الاستطلاع الذي أجراه أحد المحاضرين في كلية التربية في جامعة حيفا، البروفيسور أدير كوهين، بين طلاب الصفوف الرابعة والخامسة والسادسة في مدارس حيفا. وقد أرفق الباحث نتائج الاستطلاع بمقدمة

كتاب له حول «انعكاس شخصية العربي في أدب الأطفال العبري»[٢].

شارك في الاستطلاع ٥٢٠ طالباً حيفاوياً من الصفوف المذكورة طلب إليهم أن يكتبوا حول خمسة مواضيع، وهي:

أولاً: ما هي التداعيات التي يثيرها سماع كلمة: عربي؟!

ثانياً: كتابة قصة أو وصف قصير أو موضوع إنشاء حول لقاء مع عربي.

ثالثاً: تلخيص كتاب قرأوه وينطوي على وصف للعربي، وشرح مؤثراته عليهم.

رابعاً: محاولة شرح أسباب النزاع مع العرب.

خامساً: المجاهرة بآرائهم فيما إذا كان احراز السلام ممكناً، وفيما إذا كان ممكناً قيام حياة صداقة وتعاون مع العرب.

كانت مستحصلات الاستطلاع ما يلي:

١ ـ مستوى الخوف من العربي عال بشكل مذهل. ففي أكثر من ٧٥ بالمئة من الإجابات ترافقت شخصية العربي مع «خاطف الأولاد» و«القاتل» و«المخرب» و«المجرم» وأشباه ذلك.

٢ ـ تجريد شخصية العربي تجريداً سلبياً (قولبتها)، وهو تجريد مكرّس في أدب الأطفال العبري، طاغٍ على الأسئلة الخمسة التي طلب إلى الطلاب الإجابة عليها. ففي حوالي ٨٠ بالمئة من الإجابات تأطرت تشابيه العربي في العبارات التالية: «يعيش في الصحراء» و«راع بقر» و«ذو سحنة مخيفة» و«في وجهه ندبة» و«قذر ونتن» و«تنبعث منه رائحة كريهة» وغيرها.

٣ ـ الجهل التام، بين أوساط الطلاب اليهود، لشكل العربي وهيئته

(٢) أدير كوهين، **وجه بشع في المرآة: انعكاس الصراع اليهودي ـ العربي في أدب الأطفال العبري** (اسرائيل: منشورات رشفيم، ١٩٨٥)، باللغة العبرية.

وهندامه وتاريخه وعاداته. فبعض الطلاب قال إن العرب «أصحاب شعر أخضر» فيما أكد البعض الآخر ان «العرب لهم ذيول».

٤ ـ تسعون بالمئة من الطلاب يتنكرون لحق العرب في البلاد ويؤمنون بأنه ينبغي قتلهم أو شنقهم أو ترحيلهم.

٥ ـ فقط قلائل من الطلاب حاولوا شرح أسباب النزاع مع العرب بقدر مناسب من التفصيل، فيما اكتفى الباقون بجمل مقتضبة ومبتسرة من سياق التاريخ مثل: «انهم (أي العرب) ينوون قتلنا.. وتشريدنا من البلاد.. واحتلال مدننا. وقذفنا إلى البحر»!!

٦ ـ غالبية الطلاب الذين يرغبون بالسلام يرون أن «السلام» يعني تسليم العرب بالسيادة الاسرائيلية على «أرض إسرائيل الكاملة»، بما في ذلك الضفة الغربية وقطاع غزة.

إن هذه المستحصلات هي النصف الأول من العنصرية التي تضعها الصهيونية في «منبت رؤوس» مريديها منذ الصغر.

يبقى النصف الثاني، الذي لا يقل أهمية، وهو ما ورد في إجابات الطلاب على أسئلة الاستطلاع ومواضيعه.

ولتقديم أمثلة على هذا «النصف» نقدم، تالياً، نماذج مقتطعة من الإجابات:

رداً على السؤال الأول (التداعيات التي يثيرها مجرد الاستماع إلى كلمة عربي) ردّ. ش بقوله: «مجرم، وسخ، نتن، راعي بقر، مختطف، لص، غريب، فلّاح، عامل بناء».

وكتب ي. ع: ان «سحنته غريبة، عصبي المزاج وحادّ، ذو شعر أخضر، شرير، مخبول، متشرد».

وكتب ثالث، رفض توقيع اسمه: انه «عدو، خنزير، لصّ، مخبول، جلده غامق».

وكتب رابع، رفض هو الآخر توقيع اسمه: «يجب أن نقتل

العرب.. وان نجلسهم على كرسي كهربائي. وأن نعلقهم على أعواد المشانق. وأن نطردهم من البلاد ـ أنا كهانا».

وجواباً على السؤال الثاني (كتابة قصة أو وصف أو موضوع إنشاء عن لقاء مع عربي) كتب أحد الطلاب ما يلي:

«صعدت إلى الباص.. جلست. صعد إليه عربي. وجلس بمحاذاتي. فكرت فوراً أنه يجدر بي أن أنتقل إلى مقعد آخر. انتقلت. وانتقل العربي إلى المقعد ذاته. وفكرت أنه يخطط ضدي شيئاً ما. همّ العربي بالنزول، لكن السائق منعه وقام باستدعاء البوليس، الذي ساقه إلى السجن».

وكتب الطالب ي.ع: «عندما سافرت إلى القدس جلس بمحاذاتي صبي عربي كان ينتعل حذاءً ممزقاً ويرتدي ملابس رثة. كان لونه أسود وتنبعث منه رائحة كريهة. فقمت من جواره لأنني لا أريد أن أجلس بمحاذاته».

وكتب ج.ل: «سافرت في الباص. وفجأة جلس بمحاذاتي صبي عربي.. هممت أن أقوم، فقال انه سيمسني بسوء. رأيت أن بحوزته سكيناً حاداً. فجأة وقفت على قدميّ. فأخرج الصبي العربي السكين وحاول أن يقتلني. أسقطه أرضاً وأخذت السكين. فجأة لمحت شيئاً مشبوهاً. فنقلت الأمر إلى السائق، الذي اتصل فوراً بالبوليس. وجاء البوليس فطلبت منه أن يحقق مع الصبي العربي. وفي التحقيق كشف العربي عن مكان سكناه وقام البوليس بسجنه وأفراد عائلته لمدة عشر سنوات ثم أخلي سبيلهم».

ولدى توقف الباحث عند أدب الأطفال العبري وتأثيره على القراء (وهو موضوع السؤال الثالث في الاستطلاع) يخلص إلى القول انه ضمن حصيلة كتب الأطفال المعروضة في السوق والتي يقبل عليها «القراء الصغار» لا تزال غالبية هذه الكتب

تشـوه شخصية العـربي وتنمي بين أوسـاط قرائهـا مشـاعـر الكراهية للعرب والاستخفاف بقوتهم وبمقدرتهم العقلية.

ويرد الباحث ذلك إلى واقع أنه في الخمسينات والستينـات كان إتجاه تشويه شخصية العـربي، الاتجاه الطـاغي، بشكل تـام، عـلى أدب الأطفال العبـري. أما في السبعينـات (وتحـديـداً في أعقـاب حرب اكتـوبر ١٩٧٣) والثمـانينات، فبتنـا نجـد بعض القصص النـادرة التي تحاول أن تقـدم بطلاً عـربيـاً يمكن أن يكوّن ذاته الانسانية، فاتحة البـاب بذلـك لتجول بسيط صـوب التعامل مع شخصية العربي كإنسان وصاحب حق. ومن هـذه الكتب النادرة أعمال دفورة عومر وبنيامين تموز ودوريت اورغاد وموشيه ـ بن شـاؤول. إلا أن هؤلاء الكتاب ـ يؤكـد الباحث ـ حاولوا في قصصهم أن يتعاملوا مـع العربي بضـوء إيجابي في مواجهة نوع من حالة توبيـخ الضمير (شعبهم يضطهـد شعباً آخر) أو في سبيل دفـع ضريبة كـلامية والتظـاهر بـالليبراليـة. ولهذا طغت على نتاجهم سمات الصنعة والافتعال. وبدا العربي في هذا النتاج شيئاً من أشياء الطبيعة يحبه البعض كمـا يحب زهرة بريـة. ولم تحمل شخصيتـه خصائص الحـركة الفـردية المستقلة، بل ظل يتحرك في إطار الشخصية العربية المستحضرة لأغـراض إسرائيليـة محضـة ـ أغـراض انتقـاد المجتمـع الاسرائيلي.

مقابل هذا الاتجاه، وعلى النقيض منه، بدأت تتغلغل في قصص المغـامرات الـرائجة أفكـار «أرض إسرائيل الكـاملة»! فـالبطل المحوري لقصة «الرياضيون الصغار عائدون» لأفنـير كرميـلي[٣]

(٣) «أفنير كرميلي» هو الاسم المستعـار للكاتب الاسرائيـلي شراغا غفني. وقـد ألف حتى الآن حوالى مئة وعشرين مجموعة قصصية للأطفال والفتيان الأمـاليد ممهـورة بتوقيعـه الصريح وبخمسة أسماء مستعارة هي: «أفنـير كرميـلي» (وهو الاسم الأكثـر شهرة لـه) =

هو صبي يعيش مع والديه واخوته في مستوطنة كـولونيـالية في الضفة الغربية المحتلة. والأمنية الخفية، التي يطوي أضلاعـه عليهـا، هي أن يزداد هنـا وهناك، في الضفـة الغربيـة، إنتشار المستـوطنات الكـولونيـالية بحكم ان «أيـة قوة في العـالم ليس بمقدورها أن تقتلع شعبنا من وطنه».

وفي هذه القصة يعلن الكـاتب، بصراحة، أن «العـربي الصالـح هــو العــربي الميت» أو «العــربي الــذي انصهــر في الشـعب العبري». وفي سبيل ذلك فإنـه يدعـو جميع الشبـان العرب إلى الانصهار في الشعب العبري، مبرراً ذلك بمفهوم استعماري من نـوع جديـد يقوم عـلى اعتبار العـرب فرعـاً من سـلالـة «بني اسرائيل».

فهـا هوذا يكتب في وصـف الشبـان العرب الـذين قـرروا ربط مصيرهم بمصير «بني اسرائيل»:

«بدأ عدد من الشبان الناطقين باللغة العربية يؤمنون بأنهم من سلالة بني اسرائيل القدامى، الذين بقوا في البلاد، ولم يذهبـوا إلى المهجر، بعد أن خربها الرومان. وعندما احتل العرب البـلاد اضطرت غالبية أبناء البلاد الاسرائيليين إلى قبول دين المحتلين وعاداتهم رغماً عنها. والآن ـ هكذا آمن هؤلاء الشبان العرب ـ أزفت سـاعــة الــرجــوع إلى حضن شعبهم الحقيقي، شـعب إسرائيل، والمشاركة في عملية انبعاثه العظيمة في وطنه».

= و«ايتـان درور» و«أون شريغ» و«يغئـال غولان» و«ايتـان نوتيف». وغفني حسبمـا عـرّف نفسـه في أكثر من منـاسبة، هـو أحد رجـال جماعـة «أرض اسرائيل الكـاملـة». في سن السادسة عشرة «تطوع» للخـدمة في صفـوف منظمة «ليحي» الارهـابية (إحـدى المنظمات الارهابية الصهيونية التي انشقت عن «الاتسل»). وقد حفر تأثير ابرهام شتيرن (يئـير)، قائد هذه المنظمة الذي مات مقتولاً، بصماتـه العميقة عليـه. ويؤكد غفني، بلطف رهيب، أن مقومات رؤيته مصدرها في رؤية «يئير» الأصلية وبهديها يكتب قصصـه ويبني نماذج أبطالها!

ويشير بحث البروفيسور كوهين إلى أن غالبية كتاب قصص المغامرات اليهود يحملون أفكاراً مماثلة لأفكار أفنير كرميلي. والبعض منهم، الذي لا يوظف شخصية عربية، يضمن قصصه تشابيه مهيأة سلفاً توحي بموقفه من العربي. ومن هذه التشابيه: «الرائحة العربية» و«العمل العربي» و«التصرف مثل العربي» وغير ذلك. ويؤكد أن تأثير تلك التشابيه على تكوين وعي الأطفال الصغار مماثل للتأثير الذي يمارسه اتجاه تشويه شخصية العربي بشكل مباشر.

ويضيف كوهين ان قراءة هذا الأدب الفاسق هي ظاهرة عامة. ويكاد كل فتى يهودي في إسرائيل يقرأ هذه القصص، وتتكون لديه فكرة مسبقة، وحشية وخطيرة، عن الانسان العربي، تكبر معه وتتكرس.

أما بالنسبة للسؤال الرابع (أسباب النزاع مع العرب) فقد أبدى الطلاب اليهود جهلاً مطبقاً في الإجابات عليه. ويؤكد الباحث أن الجهل هو «دريئة جيدة» لنمو الأفكار المتطرفة الجامحة.

وأخطر ما في هذه الأفكار المتطرفة الموقف من السلام، وهو موضوع السؤال الخامس والأخير في الاستطلاع.

كتبت إحدى الطالبات رداً على هذا السؤال: «حسب رأيي يستحيل أن نتوصل إلى سلام، لأن العرب يكرهون اليهود».

والملفت للنظر، في هذا الصدد، أن عشرة بالمئة فقط من الطلاب قالوا إنهم يريدون السلام. واستنكفوا عن تفصيل شروطه ومواصفاته وإمكانات تحقيقه.

أما الرأي المناقض لذلك، فهو ما عبر عنه الطالب ع.ك، الذي كتب يقول:

«حسب رأيي يجب طرد العرب من البلاد، إذا استمروا في سفك دم اليهود لمجرد كونهم يهودا. يجب طرد عائلة العربي ومن ثم طرد قريته برمتها. العرب هم بغالبيتهم كارهون لنا ولا نستطيع التوصل إلى سلام معهم لأنهم يعتقدون بأننا أخذنا أرضهم..
أعتقد أنه يجب نقلهم إلى أية دولة ممكنة، لأن لهم عدة دول عربية ولنا فقط دولة واحدة. وبسبب سفك الدماء في هذه البلاد يظهر أشخاص مثل كهانا ويطالبون بحق، بطرد العرب من البلاد».

وفي نهاية الاستطلاع يقول الباحث كوهين: إن الواقع الذي أظهره يحبطه ويبهظه. ويعلن كفره بمقدرة الأساليب التربوية المتبعة في المدارس اليهودية على أن تشكل «بديلاً إنسانياً» لهذا الأدب الفاسق.

إن مرد احباطه ـ حسبما يؤكد ـ هو أن أدب الأطفال العبري يفرض على الأطفال اليهود واقعاً تربوياً يتربون في ظله، دون عيشهم طفولة ساذجة بريئة، فضلاً عن أنه ينمي في نفوسهم مشاعر القلق والتوتر والخوف من المستقبل.

يبقى السؤال: أي فخر أن يعرف هؤلاء الباحثون، أمثال أدير كوهين، كل التشخيص ولا يعرفون إقامة العدل؟!

٣

الصحافة في اسرائيل: بوق للمؤسسة الصهيونية(*)

رغم أن النظام الحاكم في اسرائيل يحاول تمثل الظاهرة الديمقراطية البرجوازية الغربية، من خلال ظواهر تعدد الأحزاب والانتخابات البرلمانية و حرية الصحافة وغيرها، إلا أنه في الواقع لم يتمثل من الظاهرة السالفة ـ على كل ما بها من مثالب ـ سوى الشكل الخارجي دون تمثل الجوهر.

إنطلاقاً من ذلك تبدو قضية «حرية الصحافة» من القضايا المطروحة في الوسط الصحفي الاسرائيلي ذاته بسبب القيود الكبيرة التي كبلتها بها المؤسسة الصهيونية الحاكمة.

وليست هذه العجالة السريعة فرصة لتقويم الصحافة الرسمية في إسرائيل التي تتميز ـ بقطع النظر عن دورها الوظيفي المؤدلج في خدمة المؤسسة الصهيونية الحاكمة ـ بالتجديد والابتكار والمعاصرة. كما أنها ليست دراسة لتقويم طبيعة توجهاتها الفكرية، التي تؤثر مباشرة على الانسان وعلى المجتمع

(*) هذا الفصل هو حصيلة قراءة في شهادة «شاهد من أهله» على شكل كتاب حول حرية الصحافة في اسرائيل يحمل عنوان «نمر من ورق». ولا يحتاج القارىء إلى جهد استثنائي لاستكناه دلالات هذا العنوان الموحية إلى تشكيل واقع حال الصحافة الاسرائيلية الرسمية وشبه الرسمية.

الاسرائيلي. لكن هذه العجالة مجـرد وقفة قصـيرة نقرأ خـلالها عن مـدى علاقـة الصحافـة بالمؤسسـة الاسرائيلية الحـاكمـة وحدود «الحرية»، التي تمارس في إطارها حركة التأثر والتـأثير حسبما يحدثنا عنها الصحفي موشيه نغبي، أحد محرري قسم الأخبـار في الإذاعة الاسرائيليـة (بالعبـرية) في كتـابه المعنـون بـ «نمر من ورق ـ الصراع على حـرية الصحـافة في اسرائيـل» والذي صدر في أواخر العام (١٩٨٥) عن منشورات «سفريـات بـوعليم» (مكتبـة العمـال) ضمن سلسلـة إصـدارات «الـزمن الراهن».

بلهجـة صارمـة وواضحة وعبـر نمذجـة مدروسـة من المـاضي والحاضر يجري نغبي مراجعة ذاتية للصحافة الإسرائيلية التي أدارت ظهـرها بنمـوذجية بـالغة ـ حسب تعبـيره ـ لرسـالتهـا الأساسية طوال نيف وثلاثين عاماً. والرسالة السـالفة، بـرأيه، تعني ان تكون الصحافـة «كلب حراسـة للديمقـراطية»، الأمـر الذي يلزمهـا بأن تتحـول طبقاً لتعـابير محـرر صحيفة «لـوس انجلوس تايمز» الأمريكية إلى «قوة ثـالثة يتعـين عليها أن تبقى دائماً حزباً معارضاً لا تتحمل أية مسؤولية سلطـوية ولا دخـل لها في الحكم».

وفي سبيل أن تتحول الصحافة إلى «قوة ثالثة» فإنها ترتكـز، في مختلف أنحاء العالم الغربي، إلى قوانين تقر حقوقها وفي صلبها الحق في حرية التعبير.

غـير أن الصحافـة في اسرائيل ـ يؤكـد المؤلف ـ تنـازلت منـذ البداية عن تحصين حقوقها في صيغ قانونيـة. فلم يجر تشريـع قانون يؤمن حرية الصحافة. ومقـابل هـذا الاجراء ومتسـاوقاً معـه لم تصارع الصحـافة الاسرائيليـة ذاتها من أجـل تشريع مثل هذا القانون. وهكـذا تحولت تلـك الصحافـة، أو بالأصـح

حولت نفسها اختياراً، إلى رهينة في أيدي المؤسسة الحاكمة: تكتب كل ما يروق في عيني تلك المؤسسة. وتستنكف عن كتابة ما لا يروق في عينيها. وهذا الواقع أتاح للمؤسسة الحاكمة أن تمسك بتلابيب الصحافة. وأن تحكم قبضتها، أكثر فأكثر، حول خياراتها. وبلغ الأمر حد أن أصبحت الصحافة مجرد بوق دعائي إرتهاني إستلابي للمؤسسة الصهيونية الحاكمة.

ويرى المؤلف أن حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ وحرب لبنان ١٩٨٢ كانتا بمنزلة خيارين مفتوحين أمام الصحافة الاسرائيلية يناقض أحدهما الآخر لكنهما يشكلان «مركز الثقل» في تقرير طابعها.

ففي الحرب الأولى (حرب أكتوبر) تراكمت لدى الصحافة أنباء عديدة حول الجاهزية العسكرية للجيشين المصري والسوري، عتاداً وقوة بشرية. غير أن محرري الصحف استجابوا لطلب المؤسسة العسكرية والأمنية عدم إبراز تلك الجاهزية باسم «المصلحة القومية». ويوضح المؤلف أنه قبل ثلاثة أيام من اندلاع الحرب جرى لقاء بين لجنة محرري الصحف الاسرائيلية (سنأتي على ذكرها لاحقاً) وبين قائد هيئة أركان الجيش حينذاك، دافيد اليعزر (دادو). ولم ينف هذا الأخير تقارير وكالات الأنباء الأجنبية، التي تناقلت خبر احتشاد ألفي دبابة مصرية على جبهة السويس وألف وثلاثمئة دبابة سورية على جبهة الجولان. لكنه طلب من «اللجنة» التكتم على هذه المعلومات رغم كونها معلومات غير سرية وموضع تداول الصحافة الأجنبية كافة. ويقول المؤلف ان الصحافة، بموافقتها على التكتم المذكور، أصبحت شريكة في «المحدال» (الاهمال ـ وهو تصحيف اسرائيلي رسمي لتعبير الهزيمة التي منيت بها المؤسسة العسكرية خلال هذه الحرب) ويضيف: «شعرت الصحافة الاسرائيلية على جلدها من خلال هذه الواقعة، بما

كـان ينبغي عليها أن تعـرفه منـذ البدايـة وهو انـه لا احتكار للمؤسسـة السيـاسيـة أو الأمنيـة عـلى محـددات «المصلحـة القـومية». فـإن الصحافـة تضطلع ـ عبـر جميع معلـومـاتهـا الواقعية ـ بدور أساسي في بلـورة وتحديـد الأهداف والمصـالح القومية على أساس النقاش الحر والحسم الديمقراطي»!

أما في الحرب الثانية (حرب لبنان) فان الصحافة، ولأول مرة في تاريخ «حروب اسرائيل»، رفضت أن تكون بوقاً لنشر التقويمات والتقارير الـرسمية بصـدد الحرب. وهـذا «الموقف الشجـاع»، بـرأي نغبي، مكّن الصحافـة الاسرائيليـة من تحقيق مكسبـين يشكلان، في المحصلة، نقطة الذروة في تاريخها * المكسب الأول يتمثل في الكشف عن معارضة بعض أفراد الـوحدات القتـالية، وبعض قـادة الجيش لاقتحام بـيروت ** أمـا المكسب الثـاني فيتمثل في إماطة اللثام عن حيثيات مجازر صبرا وشاتيلا.

وينتصر نغبي للخيار الثاني ملمحاً إلى أن هذا الخيار ينبغي أن ينسحب عـلى موقف الصحـافة حتى عنـدمـا يتـرسـخ لـديهـا الاعتقاد بصدد «اعتدال» المؤسسة الحاكمة وهو اعتقاد ترسخ، في الفترة الأخيرة، لدى الصحافة الاسرائيلية وترتب على عـودة حزب «العمل» إلى الحكم في إطار «حكومة الرأسين».

يفرد المؤلف فصولاً عدة من كتابه لشرح القيود المفروضة عـلى حرية الصحافة في اسرائيـل والتي وافقت الصحف الاسرائيلية الرسمية عـلى تكبيل نفسهـا بها بسكـوتها عنهـا تطبيقاً للمثـل القائل «السكوت علامة الموافقة».

وأول تلـك القيـود القـانـون المـوروث عن «أنظمـة الطـوارىء» الإنتدابية البـريطانيـة والذي يخـول وزير الـداخلية صـلاحية إغلاق أية صحيفة أو مجلة دورية لمجرد قيامها بنشر «تلفيقـات أو شائعات كاذبة من شأنها ـ بموجب رأي الوزيـر ـ أن تخلق

جوّاً من الرعب أو اليأس»! أو إذا ما قامت بنشر «ما من شأنه ـ حسب رأي الوزير ـ أن يهدد أمن الجمهور»!

لكن منذ أن فشل وزير الداخلية، في العام ١٩٥٣، في إغلاق صحيفتي الحزب الشيوعي الاسرائيلي «الاتحاد» و«كول هعام» (سلف صحيفة «زو هديرخ»، التي تصدر عن الحزب حالياً)، استناداً إلى قرار استصدرته الصحيفتان من المحكمة العليا ونص على تجديد صدورهما، جرت إحالة مسألة الاغلاقات على حكام الألوية الذين يتمتعون بصلاحيات مماثلة «تنهل» من النبع العكر نفسه ـ «أنظمة الطوارىء» الانتدابية! ويستعمل حكام الألوية هذه الصلاحية بحرية مطلقة وخصوصاً ـ حسبما يؤكد المؤلف ـ من أجل كمّ أفواه الصحافة الفلسطينية في القدس المحتلة.

ومن تلك القيود أيضاً ما تمارسه من «رقابة ذاتية» الهيئة المسماة «لجنة محرري الصحف الاسرائيلية». وهي هيئة تضم محرري الصحف المأسسة الكبيرة (مثل «معريف» و«يديعوت احرونوت» ودفار» و«هآرتس» وغيرها).

وقد وافقت هذه اللجنة، في العام ١٩٤٨، على عدم تشريع قانون يتعلق بالصحافة وحرياتها. كما وافقت على نشر جميع التقارير والتقويمات الرسمية «شريطة» أن تقدم الرقابة بعض التسهيلات لصحفها.

ويؤكد نغبي أن هذه اللجنة مارست رقابة ذاتية صارمة على صحفها فاقت في صرامتها، أحياناً كثيرة، ما كانت تتوقعه المؤسسة الحاكمة ذاتها. فيما يؤكد المدير السابق لدائرة الصحافة الحكومية، الدكتور ميرون مدزيني، أن رقابة «لجنة المحررين» الذاتية كانت بمثابة «رقابة سياسية واضحة المعالم

ترمي إلى إخفاء معلومات لا تعد، ولا بأية حال من الأحوال، أسراراً أمنية!».

ولعل أكثر القيود خطراً على حرية الصحافة، كما يتبين من الكتاب وتوضح معطيات الواقع، هي الرقابة العسكرية. ورغم أن المؤلف لا يعارض «الحاجة الموضوعية» للرقابة العسكرية إلا أنه يؤكد أن الرقابة العسكرية الاسرائيلية تتخذ طابعاً أكثر شمولية وأشد تعسفاً من أية «دولة ديمقراطية» في العالم. فالرقيب العسكري مخول بأن يشطب أية معلومة من شأنها ـ حسب رأيه ـ «أن تمس بأمن البلاد أو بسلامة السكان أو بالنظام العام»! ورأي الرقيب الشخصي هو المقرر ولا يمكن الاستئناف عليه. حتى لو رغبت الصحيفة، أياً كانت، بالتوجه إلى المحكمة العليا فانه ليس لدى هذه المؤسسة القضائية أية صلاحية قانونية تخولها إسقاط قرار الرقيب.

ويسلسل نغبي للدلالة على عسف الرقابة العسكرية ـ وقائع حظرت الرقابة النشر عنها رغم أنها لا تمت بصلة، لا من قريب أو بعيد، إلى «القضايا الأمنية». ومن تلك الوقائع، مثالاً لا حصراً: هروب سكان مدينة «كريات شمونة» من مدينتهم بعد تصاعد سقوط قذائف «الكاتيوشا». وعمليات قتل الأسرى العرب بدم بارد خلال «حرب الليطاني» ـ ١٩٧٨ (ولم ينشر عنها في الصحافة الاسرائيلية إلا عقب تداولها في الصحافة الأجنبية). وحالات «توبيخ الضمير»، التي انتابت عدداً من قادة الجيش وسلاح الطيران بصدد قصف المناطق المدنية المأهولة بالسكان العزل خلال حرب لبنان.

أما عن ممارسات الرقابة العسكرية في المناطق الفلسطينية المحتلة فحدِّث ولا حرج! «فإن الرقيب هناك ـ يقول المؤلف ـ يستغل، أيما استغلال، الصلاحيات التي تخولها له الأنظمة

الإنتـدابيـة لكي يشطب التعليقـات والتحليـلات الإخبـاريـة والأدبيات السياسية، والتي حظر شطبها بموجب اتفاق مكتوب بين السلطة وبين «لجنة المحررين». ويشطب الرقيب، في صحف المناطق المحتلة، المفـردات والرمـوز ذات الصبغة السيـاسية ـ الاجتمـاعية ليس فقط من المـواد الاخباريـة وإنمـا أيضـاً من الإعلانات التجارية (بمـا في ذلك إعـلانات النعي) ومن الألغـاز والنتاجات الأدبية والفنية».

وثمة رقابة عسكريـة ضمنية يمـارسها النـاطق بلسان الجيش. فهـذا الناطق ومـرؤوسوه هم بمنـزلة «رقـابة عسكـرية ثـانيـة وظيفتهـا أن تمنع نشر أمـور لا تروق في أعـين قيادة المؤسسـة الأمنية. ومنذ العام ١٩٧٣ أضحى «الناطق» جزءاً عضويـاً من جهاز الاستخبارات العسكرية. وهو جهاز يرفض، بطبيعته، كل مـا له عـلاقة بـالكشف الصحفي، جملـة وتفصيـلا، ويعتبـره شائناً»! وقبـل التاريـخ السالف، منـذ العام ١٩٦٧، حظـر على ممثلي وسائل الاعلام الالكتـرونية إذاعـة أي تقريـر أو مقابلـة تتعرض للمسائـل «الأمنية» بـدون تصديق النـاطق العسكري. وانسحب هـذا الحظـر، في أحـايـين كثـيرة، عـلى الاستشهـاد بمصادر خارجيـة رغم التنويـه بتفصيلاتهـا ومحدداتهـا وعلى مراسلي الصحف ووسائل الاعلام الأجنبية.

يضاف إلى هذه القيود كلها إجـراء منع الصحفيـين من دخول مناطق المواجهة الساخنة أو «المناطق الحساسة» ـ حسب تعبير القيادة العسكرية. وللتدليـل على مـاهية تلـك «الحساسيـة» قد تكفينـا الإشارة إلى أن مـرتفعات الجـولان السـوريـة المحتلـة اعتبرت «منطقة حساسة» إبان حملة فرض الهويات الاسرائيلية بالقوة على الأهلين هناك.

وفي الحـالات الإستثنـائيـة للمنـع السـالف يجـوز للصحفيـين

الوصول إلى المناطق الساخنة بموجب «تصريح خطي» خاص. غير أن هذا «التصريح» خاضع لمزاج القيادة العسكرية، سواء المركزية منها أو الميدانية، التي تحرم منه أي صحفي «يتجرأ» على نشر ما لا يستسيغه ذوقها الجائر. وهذا ما حصل مع الصحفي شالوم كوهين في العام ١٩٦٢، إثر توجيهه انتقادات إلى «الجهاز الأمني»!. وتبعاً لذلك أنشأ الجيش، بمرور الوقت، فئة داجنة من المراسلين العسكريين لسان حالها يقول: «نأكل ما تطبخون»!

■ الصحافة الشيوعية ـ مدافع طليعي

لا يمكن «اتهام» موشيه نغبي بحب الشيوعية، من حيث أمرين يجاهر بهما في كتابه، باطلاقية في الحكم:

الأول ـ كونه يتمثل الظاهرة الديمقراطية البرجوازية الغربية، مع كل ما في ذلك التمثل من عمى «أبيض» بصدد طبيعة الاشتراكية كنظام اجتماعي ـ اقتصادي والثاني ـ كونه مؤدلجاً بالصهيونية، التي تنتمي إلى الفكر البرجوازي الذي يزين، بدوره، العمى السالف.

غير أنه، عبر تصديه لدراسة موضوعة حرية الصحافة في اسرائيل، لم يستطع أن يتجاوز حقيقة تاريخية مؤداها أن الصحافة الشيوعية في اسرائيل كانت، منذ البداية، نسيج وحدها في هذه المسألة من دون الصحافة الاسرائيلية جمعاء. وفي هذا الصدد يشير إلى دور الصحافة الشيوعية الطليعي في هذا المضمار وإلى حقيقة انها وضعت المحكمة العليا أمام مسؤولياتها بوصفها الضمانة أمام عدم هشاشة حرية الصحافة.

كان ذلك في العام ١٩٥٣ حين أعلنت إسرائيل الرسمية، على

لسان سفيرها في واشنطن أبا إيبان، عن موافقتهـا الكامـل على وضـــع مئتـــي ألـــف جنـــدي إسرائيـــلي تحـــت تصرف الإدارة الأمريكية في حال نشوب حرب مع الاتحاد السوفييتي.

ردت صحيفتا «الاتحاد» و«كول هعام» على هذا الاعلان الفظ في مقـالين افتتـاحيتـين الأول تحت العنـوان «الشعب لن يسمـح بالسمسرة بدم أبنائه» فيما حمل المقال الثاني عنـوان: «ليذهب أبا ايبان إلى الحرب لوحده..». وفي أعقاب هذين المقالين أصدر وزير الداخلية أمراً باغلاق «الاتحـاد» لمدة ١٥ يـوماً وبـاغلاق «كول هعام» لمدة عشرة أيام. ورفع الحزب الشيوعي الاسرائيلي، يـومها، شكـوى إلى المحكمـة العليـا التي ألغت، بعـد البت في المـوضوع، أمـر الاغلاق وأمـرت وزير الـداخليـة بعـدم المس بصدور الصحيفتين بشكل منتظم.

ويشكل هذا القرار ـ حسبما يؤكد نغبي ـ الضمانة القضائيـة الوحيدة لقيام حريـة صحافـة في اسرائيل كمـا أنه سلّـح شتى الصحافة ولا يزال في معاركها القضائية من أجل حرياتها، علماً بأنه لا يشكل بديلاً عن ضرورة اتخاذ اجـراءات تشريعية أكثـر متانة لتحصين الحريات الديمقراطية.

إن «المعيار» الصحيح لحرية الصحافة، الـذي يطرحـه نغبي في هـذا الكتـاب، هـو مـدى الاقتـراب من وضعيـة الصحـافـة الأمريكية، التي شهدت «معارك طاحنة» مع المؤسسة الحـاكمة بشأن حرية التعبير (منها معركتا «ووترغيت» وحـرب الفيتنام). لكن الحقيقة هي أن الصحافة الأمريكية تستند إلى دستـور هو ثمـرة الثـورة الـديمقـراطيـة في العـام ١٧٧٦ ينص عـلى حث الصحفيين في التعبير وحق الجمهور في المعرفـة. أما نغبي فـإنه يطـرح ذلك «المعيـار» بدون الإشـارة إلى أن اسرائيل الـرسمية استنكفت طوال ٣٧ سنة ولا تـزال عن تشريع قـوانين ممـاثلة.

وبالمقابل لم تحرك صحافتها الرسمية ساكناً إزاء هذا الاستنكاف. كذلك فانه يطرح «المعيار» المذكور بدون الإشارة إلى التراجع الحاصل في دور الكنيست العام، باعتبارها أعلى هيئة تشريعية في البلاد. صحيح ان النظام الحاكم في اسرائيل يتمثل الديمقراطية البرلمانية الغربية لكن تمثله لم يتجاوز الإطار الشكلي إلى تمثل الجوهري وحتى المفهومي. وهكذا ظلت اسرائيل بعيدة كل البعد عن الديمقراطية، حتى في مفهومها البرجوازي التقليدي. واحتفظت لنفسها بخيار احداث انعطاف حاد عن هذه الديمقراطية. ويستند هذا التقويم إلى ثلاث ظواهر بارزة:

(١) عدم اعتمادها دستوراً محدداً. وحتى الآن فهي ترى نفسها في حكم المرحلة الانتقالية، من حيث تعيين حدودها الجغرافية والديمغرافية.

(٢) إلى جانب نظام حكمها المدني لم تسقط البتة خيار نظام الحكم العسكري، سواء كان ذلك بشكل مباشر (حيث فرض هذا النظام على المواطنين العرب في اسرائيل حتى العام ١٩٦٦) أم بشكل غير مباشر، بالاعتماد على «أنظمة الدفاع لساعة الطوارىء» المطبقة ضد المواطنين العرب.

(٣) هيمنتها، بواسطة الحكم العسكري، على مليون ونصف مليون فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وعلى هذا الضوء، فإن المؤسسة الصهيونية الحاكمة لا قبل لها بالتخلي عن وسيلة هامة مثل احتكار الصحافة، بوصفها مصدراً أساسياً للمعلومات.

ولا يبدو أن مشكلات الصحافة في اسرائيل سوف تجد حلاً لها بحل مسألة انعدام وجود قانون يحصن حقوقها ـ حسبما يؤكد نغبي. فهي تواجه صعوبات أكبر من ذلك بكثير. ومن الصعب

أن نتصور وضعية مغايرة للوضعية التي صورها الكتاب وحدد ملامحها إذا لم تتنكر الصحافة لتلك النظرية المأسسة والراسخة، ذلك النهج العميق ـ نهج العدوان والتوسع والعداء للشعب العربي الفلسطيني ـ وإذا لم تتنكر لعملية التنظير لهذا النهج.

٤

صراع الغرب والشرق في الثقافة العبرية الاسرائيلية(*)

عندما يقول مراقب ثقة أن المجتمع اليهودي في اسرائيل غير متجانس البتة ناقلاً، بذلك، الواقع كما هو فإن هذه التوصيفة لا تستمد فحسب مشروعيتها الواضحة، لمساً ورؤية، من الهوة الاجتماعية العميقة ومن الفوارق الكبيرة في شرائحه الاجتماعية المختلفة، والتي تكاد تصل حافة «الفرز» مع تفاقم الأزمة الاقتصادية، وإنما تستمدها كذلك مما هو قائم من صراع حضاري، يخفي وراءه قمعاً حضارياً قاسياً، بين الغرب والشرق في الثقافة اليهودية ذاتها.

ولعل الصراع الراهن العنيف، الذي تشهده ساحة علم الاجتماع الاسرائيلي حول ما إذا كانت اسرائيل دولة غربية أم دولة شرقية، كاف للتدليل على عدم التجانس السالف.

بيد أن هذا الصراع لا يقتصر على علم الاجتماع دون سائر

(*) القمع الصهيوني العنصري في اسرائيل، في شكليه الرسمي والشعبي، لا يطال المواطن العربي الفلسطيني بوصفه «ممثل المحيط المعادي» فحسب وانما يطال أيضاً اليهودي الشرقي (السفارادي) في جوهر شخصيته وثقافته وجذوره، من جانب اليهودي الغربي (الاشكنازي). فكيف ينظر الاشكنازي إلى ثقافة السفارادي؟ هذا ما يوضحه الفصل التالي:

مضمارات الثقافة اليهودية بل ينسحب على النتاجات الأدبية والفنية، التي تسهم بشكل كبير في تأطير «انتماء إسرائيل الحضاري».

ففي هذه النتاجات نجد، بداية، أن «البطل» الأشكنازي الأجنبي المتحكم يتمتع بمواصفات تكرس فوقيته تجمع بين القوة والعلم والحنكة في حين لا يتمتع «البطل» السفارادي والشرقي بأي من المواصفات المذكورة وإنما هو نموذج بدائي ومتخلف ولا يدنو من الحضارة إلا ليبتعد عنها، الأمر الذي يبرر دونيته.

والعكس، في الحالة المذكورة، صحيح نوعاً ما.. لكن اليهود السفاراديين قلما يكتبون بالمقارنة مع السيولة التي يكتب بها اليهود الأشكنازيون. ولذلك، فإن الأدب الذي نقرأه وسنقرأه والفن الذي نشاهده أو نسمعه في اسرائيل وفي الأفق المنظور ليس إلا أدباً وفناً يقومان على القمع الحضاري لفئات واسعة يفترض أن تكون من مريديهما ناهيك عن موقفهما العنصري الشوفيني إزاء شخصية العربي عموماً.

إن طَرْقَ هذه الموضوعة في الثقافة اليهودية، في المستوى الاسرائيلي على الأقل، جديد كل الجدة. فعلى مدى سنوات طويلة كان النفور من «البطل» السفارادي في هذه الثقافة أمراً مسلّماً به، أشبه بالبديهية. ولم يكن محفوفاً بحساسيات أضحى محفوفاً بها راهناً. وكانت وسائل الاعلام والنقد الأدبي، بوسائلها التمويهية، يتكفلان بالحفاظ على «تسلسل منطقي» لهذه العملية بحيث يبدو دور «البطل» السفارادي استمراراً لدوره «الأصيل» في الواقع بتسويغ خبيث مفاده أن ليس من مهمة للأدب أكثر سمواً ورقياً من مهمة تصوير الواقع تصويراً مباشراً يصل حد التصوير الفوتوغرافي.

لكن من الـواضـح أن نمـاذج الأبطـال السفـاراديـين لم تكن «نمـاذج أصليـة» وإنمـا نمـاذج مستحضرة يـزين الكـاتب الاشكنـازي الصهيوني، بهـا وفيها، قمعـاً حضاريـاً ما انفـك يمارسه في الواقع.

فما هي أحكام هذا القمع؟ وكيف تبدو «ضحاياه»؟

هذه التساؤلات شكلت إطار التحقيق الصحفي الذي قـامت به الباحثة الأدبية المعروفة تمار مروز عبر صفحات عدة من ملحق «هآرتس» الاسبوعي (١٣ أيلول ١٩٨٥).

التحقيق حـافل بنمـاذج عينية وبشهـادات أطراف ذوي صلـة وثيقـة بالمـوضوع والنمـاذج والشهادات كـافة تؤكـد الحقائق التالية:

أولاً: وجود القمع الحضاري ضد اليهود السفاراديين بكثير من الحدة.

ثانياً: وقـوف مؤدلجات وراء هـذا القمع تعـود إلى الاصطفاف الاجتماعي بين اليهود في اسرائيل.

ثالثاً: استحالة تجاوز نقاط الخلاف بين طـرفي الصراع في ضوء هيكلية السلطة في الدولة العبرية.

إن مـا توصلت إليـه مروز ينسف أسطـورة الضلال، التي مـا فتىء الاعلام الصهيوني يروّج لها كثيراً. وهي أن اسرائيل بلد يسوده «السلام الاجتماعي». كما يؤكد أن هذا «السـلام» كان ولا يزال وهماً ظل الاسرائيليون يطاردونه حتى أصبح يطاردهم حاملاً في طياته خطر انفجار اجتماعي قد يبدو حصوله بعيداً في الأفق غير أن محدداته موجودة تحت السطح قليلاً.

وتؤكد مروز، في مستهـل التحقيق، أن اللقاء الـذي حصل عـلى

أرض فلسطين بين الثقافة الغربية وبين الثقافة الشرقية، اللتين حملهما اليهود القادمون من أقطار أوروبا وأمريكا من جهة ومن الأقطار العربية من جهة اخرى، لم يترتب عليه امتزاج الثقافتين. بكلمات أخرى لم يسفر هذا اللقاء عن نشوء ثقافة واحدة متأثرة بالثقافتين ذات طابع اقليمي «وخصوصية اسرائيلية».

إن ما حصل ـ تضيف ـ هو عكس ذلك تماماً. الحرب بين الثقافتين تتخذ طابعاً عدائياً عنيفاً قلما يطفو على السطح المرئي.

ويتمثل هذا الطابع العدائي، أكثر ما يتمثل، في الكيفية التي يصور بها اليهود الاشكنازيون اليهود السفاراديين في الأفلام السينمائية والدعائية التجارية وفي الأغاني.

ففي جميع تلك النتاجات، دون استثناء، تعرّض «البطل» السفارادي إلى عملية تجريد سلبية (قولبة) على صعيدي الشكل والحضور. أما على صعيد المضمون فإن هذا «البطل» يخجل من حضارته «البدائية» ومن أصله «الوسخ». ولا يعمل، إذا كان يعمل أصلاً ولا يعتاش على الاجرام ضمن منبوذي «العالم السفلي»، إلا في المهن الهيّنة التي لا يحتاج صاحبها إلى التمتع بذكاء خارق وموهبة متميزة وثقافة واسعة.

يقول داني وورت، من «المعهد الاسرائيلي للسينما»، ان الأفلام الاسرائيلية التي أنتجها وكتبها وأخرجها يهود أشكنازيون وتعرّضت، بالرصد والتحليل، لليهود السفاراديين تنقسم كافة، بلا استثناء، إلى قسمين:

القسم الأول أفلام مناحيم غولان، مثل «الدورادو» و«فورتونا» و«ملكة الشارع» و«كازبلان» وغيرها، التي تتميز بإبراز واقع

أن اليهود السفاراديين يعيشون على هامش المجتمع اليهودي ليس لأن هناك من يحاول تهميشهم وإنما لأن معظمهم مجرمون وزناة. مقابل ذلك، ونقيضاً له، فإن كل الشخصيات صاحبة المواقف الدرامية المؤثرة والقوية يؤديها ممثلون من أصل غربي (أشكنازي).

القسم الثاني ما يسمى بـ «أفلام البوركاس». وجميعها أفلام كوميدية مبنية على خلفية طائفية يبدو فيها الأبيض (الأوروبي) زعيماً أو مديراً. أما السفارادي فيبدو بدائياً يتكلم لغة ركيكة وصاحب حيلة وخديعة..

يضاف إلى هذه التوزيعة عنصر لا يقل أهمية عنها وهو أن جميع الأفلام حتى التجارية الدعائية منها والأغاني عن اليهود السفاراديين هي نتاجات كوميدية. وهو عنصر يحمل أكثر من دلالة محددة المعنى، فما هي؟!

يؤكد البروفيسور أفنير زيف، من جامعة تل أبيب، ان المجتمع الأشكنازي اليهودي يعيش في أجواء يشعر فيها بخطر هيمنة الموسيقى ونمط الحياة الشرقي على الشارع الاسرائيلي العام. ولكنه يخشى المجاهرة بمخاوفه تلك لما تعكسه من مواقف استعلائية فظّة. فماذا يفعل؟ لقد وجد فنانوه أن أسهل طريقة لتنفيس هذه المخاوف والتلويح بها تمر عبر الكوميديا التي يمكن في إطارها وبحجتها تصوير نمط الحياة الشرقي بما يشبه النكتة. وكانت تلك الطريقة - يقول - وسيلة مدهشة تستر الاشكنازيون بواسطتها على ما طووا أضلعهم عليه من هجوم إستعلائي على الثقافة الشرقية وأصحابها.

وكما في السينما كذلك في الأفلام التجارية الدعائية الرائجة الآن في اسرائيل عبر تلفزتها وشاشاتها الكبيرة.

ويمثل على ذلك فيلمان حققا رواجاً منقطع النظير هما «ألبرت

بائع الفواكه» و«سائق التاكسي» الذي يعبىء أسبوعياً استمارة مسابقة التوتو (التكهن بنتائج مباريات الفرق الاسرائيلية في كرة القدم).

بطل فيلم «البرت بائع الفواكه» وهو شخص سفارادي لغته ركيكة لكنه مسلّ. عندما يخاطب زبونة اشكنازية يستهل كلامه بالقول «سيدتي»! فهو يعرف موقعه الاجتماعي، ومن غير الجائز مخاطبة «الأسياد» إلا باللغة التي يفهمونها!

أما سائق سيارة التاكسي فهو بطل مماثل قلما يفلح. ويتكلم لغة ركيكة ويقوم بحركات بهلوانية مسلية. ورغم أنه سيء الحظ، وهي الوضعية التي تعكس موازياً لها في الواقع، إلا أنه لا يزال يضحك غير عابىء بما يحدث لأنه غريب عن الاقليم والتاريخ والجغرافيا.

إلا أن أقسى ممارسات القمع الحضاري الواضحة والصريحة ضد اليهود السفاراديين وثقافتهم وجدت تعبيراً عنها في حملة شعواء لا تزال تتفاعل ضد الأغاني ذات اللون الشرقي، التي يلحنها ويغنيها يهود سفاراديون.

ومعروف أن سوق الأغنية في اسرائيل يشهد الآن انتشاراً واسعاً للأغنية ذات اللحن الشرقي وذات الكلمات العبرية الشعبية المطعمة ببعض التعابير والكلمات العربية.. خليط ينسجه المطربون السفاراديون، كما في قماشة مغربية، متحاشين «اللكنة الأوروبية» التي يعرف بها اليهود الأشكنازيون. وفي اسرائيل مناخ فني شعبي ساعد ويساعد على انتشار تلك الأغاني وعلى شهرة أصحابها إلى حد اضطر معه مطرب اشكنازي ذو باع طويلة في الغناء، اسمه داني ساندرسون، إلى أداء مثل هذه الأغنيات حتى يكسب حظه من الشهرة والانتشار.. والمال!

«عند ذلك انهارت كل السدود ـ يقول مئير رؤوبيني، أحد أصحاب شركة «رؤوبيني اخوان» لإنتاج وتوزيع كاسيت الأغنية ذات اللون الشرقي ـ في البداية رفضوا إذاعة تلك الأغاني عبر المنابر الرسمية. وعاملونا وكأننا من الدرجة الثالثة. وحاولوا أن يلصقوا بنا صفات الأشياء المنبوذة المحتقرة. ونحن من جهتنا لم ندخر وسعاً في الرد عليهم. ووصل الأمر إلى درجة أننا طلبنا من رئيس الدولة السابق، يتسحاق نافون، أن يتدخل في الأمر، لكنه لم يفعل. ومع ذلك ازدادت الأغنية الشرقية إنتشاراً وفرضت نفسها على الشارع حتى اضطروا إلى إذاعتها، بداية، مرة واحدة في الأسبوع. فماذا بوسعهم أن يفعلوا.. ألسنا نحن الأكثرية هنا؟ ألا نشكل ستين بالمئة من اليهود؟».

لا تنتهي القضية عند هذا الحد. فعندما أسقط في أيدي الاشكنازيين وانحسرت سيطرتهم على سوق الأغنية الاسرائيلية «تطوع» عدد من مطربيهم لأداء أغان ذات لون شرقي بغيتها تسخيف هذا اللون على طريقة الكوميديا في الأفلام. ولكن أهم ما في أمر هذا اللون من الغناء هو الحس الفني. وهذا الحس إذا ما افتقده فنان يضيع. والغناء ليس عرض عضلات، بل وجدانيات وكلمات وصوت يؤدي الأغنية بصدق. وهذا ما ينطبق على حالات مثل حالة الأغنية العبرية ذات اللون الشرقي.

ثمة عنصر آخر لا يجعل من الطريقة المذكورة أكثر من مجرد وهم. وهو ما أشار إليه موطي ريغف (عالم اجتماع في جامعة تل أبيب يعد لأطروحة الدكتوراه حول موضوع «الصراع بين الثقافة الموسيقية الهامشية وبين الثقافة المركزية») بقوله: «إن موجة الأغاني التي تحاول محاكاة موسيقى الكاسيت بدأت من منطلق التسخيف ليس أكثر ولكن من شأن ذلك في المستقبل أن

يسرع، بوتائر أكبر، عملية إضفاء الشرعية على الموسيقى ذات اللون الشرقي»!

وقال أكاديمي آخر رفض الإفصاح عن اسمه: «قد نكون (يقصد الاشكنازيين) تصرفنا مع الشرقيين وكأنهم لقطاء. ورششنا عليهم مادة الـ «د.د.ت» المضادة للحشرات، وعزلناهم عن تقاليدهم. ودسنا على كرامتهم لنسمو بكرامتنا وربما انتصرنا هنا، لكن ويل للمنتصرين لأن الشرق لا يمكن أن يهزم! لقد مرّت حضارات أوروبية عديدة، منذ اليونان القديمة وثقافتها المزدهرة، من هنا، لكن حضارة الشرق ظلت باقية ولم يبق من سائر الحضارات سوى بقايا متآكلة».

وهذا صحيح. وصحيح كذلك أنه مهما يشتد القمع الحضاري ويشتط داخل اسرائيل وضد اليهود أنفسهم فإن المجتمع الاسرائيلي هو كيان غير طبيعي ولا يعتمد على أسس متينة، سواء من الناحية الاجتماعية أو الحضارية أو حتى الاقتصادية.

٥

الصيرورة:

تحولات ثقافية بعد حرب لبنان

■ توطئة

أفرزت الحرب الاسرائيلية العدوانية، التي شنتها حكومة مناحيم بيغن في حزيران ١٩٨٢ على الشعبين اللبناني والفلسطيني في لبنان، تطورات وانعطافات حادة في المجتمع الاسرائيلي كان مضمونها الجوهري إحداث شرخ عميق، ما انفك يتسع، فيما يسمى بـ «الإجماع القومي الصهيوني» حول الحرب مع «العدو العربي». وانعكست هذه التطورات والانعطافات بدورها، طبيعة، على الواقع الثقافي الاسرائيلي إذ تمثلت في ظهور نتاج أدبي يردف، بفعل الكلمة، ظواهر المناهضة الشعبية المختلفة للحرب السالفة.

وتفجر هذا النتاج الأدبي المعارض تفجراً هائلاً مقارنة مع ما أفرزته سائر حروب اسرائيل من نتاج مناقض. ففي السابق وباسم «الاجماع القومي» المذكور بكمِّ صوت الأدب عندما دوّت مدافع الحروب. وإذا كان ثمة استثناء لهذه القاعدة تمفصل في خروج نفر قليل من الأدباء على مسلمات ذلك «الاجماع» فإن حملة الهجوم والتحريض التي تعرض لها كانت كفيلة بخنق صوته.

الأديب عاموس عوز، الذي كان من بين أوائل الذين رفعوا صوتهم ضد نظرية الضم والاحتلال وضد اضطهاد شعب آخر، هدأ صوته. والأديب يزهار سميلانسكي، الذي كان واحداً من أشد الساخطين في شتاء ١٩٦٧، خفّ صوته كذلك! ولم تكن الحالة التي صار إليها هذان الأديبان نتيجة مباشرة للهجوم والتحريض اللذين ناءا بكلكلهما عليهما فحسب، وإنما أيضاً بسبب اليأس والشعور بالعجز وعدم الثقة بقدرة الأديب الفرد على تغيير أمور يصنعها وزراء وجنرالات وصحف وأحزاب بقوى مؤتلفة مستغلة لذلك كل الوسائل الحكومية التي في حوزتها.

خلافاً لبقية «حروب اسرائيل» أفرزت الحرب الاسرائيلية العدوانية على لبنان أدباً سياسياً احتجاجياً انصرف عن الهموم الفنية الخالصة إلى همّ مخاطبة جمهور قرائه بشكل مباشر وبهدف التأثير على وعيهم السياسي ودفعهم باتجاه اتخاذ مواقف محددة نقيضة للحرب والعدوان وسقوط الانسان في الانسان.

وبدون الدخول في تفاصيل هذا الأدب السياسي، شكلاً ومضموناً، واقعاً وأسطورة، وفيما إذا قارب حافة نموذج أدب المقاومة، سواء كان ارهاصاً بها أو فعلاً تحريضياً عليها، نشير إلى أنه أحدث خلخلة فيما نسميه «السمات الرسمية للوثيقة الأدبية الاسرائيلية» وهي، إذا ما تحرينا اختصار المواصفات، ثلاث سمات بارزة:

الأولى: هناك تدخل في حرية التعبير الأدبي الاسرائيلي إذا ما جنح إلى مخالفة جوهر أهداف السلطة الاسرائيلية الحاكمة. وهي سمة تنمذج الجانب العنيف من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدباء الاسرائيليين بالإغراءات والضغوط من أجل

الـدعوة إلى مفـاهيم السياســة الاسرائيلية ومـرتكـزات الفكـر الصـهيوني عموماً.

الثانية: الأدب في اسرائيـل يواكب أهـداف السلطة ويـدق لها الطبول. وهو أداة في يدها لتحريك الجماهير اليهودية. وهو أدب يحمل سمات الصنعة والافتعال.

الثالثة: هناك أدب يتحرك فقط لخدمة الـدعوة الصهيـونية لمـا يسمى «القومية اليهودية» و«ارتباطها التاريخي بفلسطين».

يقينـاً أن للصمـود الفلسطيني الأسطـوري في بـيروت الفضـل الأول والأخـير في التصـاق المبـدعـين الاسرائيليـين بـأدب الاحتجـاج، غير أن هـذا الأدب لا ينطلق، أساسـاً، من خدمـة الحق الفلسطيني أو العـربي بل من محـاولـة تعـديـل صـورة اسرائيل الملوثة وليسهم، من موقعه، في محاصرة الـذئب في عقر داره. ولقد أدى ولا يزال يؤدي دوراً بـارزاً في هذه المحـاصرة. وتصـدى للتعبـير، ببسـاطـة وايحـاء، عن أعمق الأحـاسيس الانسانية وأغناها. فأية انسانية يمكن أن تدوم طالمـا أن قيمها النبيلة معرضة للانـدثار أمـام عربـدة الذئـاب المنفلتة من كـل عقال؟ أية ثقافة يمكن أن تقوم في الوقت الذي يتحول فيه أبناء الشعب إلى حقل تجارب لاستعمال أحدث «منجـزات» الأسلحة الفوسفورية والعنقوديـة؟ ـ تلك هي المسـاءلة الأسـاسية التي خاض غمارها الأدباء الاسرائيليـون بعد حـرب لبنان ووضعـوا حداً حاداً بين غياب الذات الثقافية الاسرائيلية وحضـورها مـا قبل الحرب وبعدها.

إن صوت أدب الاحتجاج الاسرائيلي ارتفع فوق كل أدب، فـوق كل شيء. إلا أنه يصعب الجزم، الآن، بأنه أدب جماهـيري رغم كونه قد حمل قضية الجماهير وجسّد عذاباتها وطموحاتها. فهو لم يكتسب شرعة «الشارع الأدبي» وان كان يمارس عـلى نطاق

ضيق للغاية دوراً فاعلاً في التأثير على الواقع يوازي موضوعياً عملية خدش صخرة صماء. ما نستطيع الجزم به، بخصوص هذا الأدب، أن الاحتجاج على الحرب هو نشر الوعي بها. والوعي بالشيء تصعيد للشعور به. وهذا في التوتر الذي يبلغه تحول للكم إلى نوع وتفجير للتراكم في اندفاعة هي الصحوة.

ويصبح أدب الاحتجاج الاسرائيلي على الحرب، بمرور الأيام، روافد من العسير الاحاطة بها بغير دراسة وافية عنها أكبر من بحثنا هنا في الحدود، التي رسمناها له. ولهذا فقد اكتفيت بالحديث إشارياً عن بعض ملامح التحول في صيرورة الواقع الثقافي الاسرائيلي بعد الحرب بعامة في انتظار أن ترسم خريطة هذا التحول دراسة أعم وأشمل تؤدي المهمة كاملة وتفي بالغرض المطلوب.

■ الانهيار (البدايات)

ينبغي القول موضوعياً إن الغزو الاسرائيلي للبنان لم تدججه فاعلية «اجماع قومي» في القاع. فمنذ اليوم الأول على قيام طائرات الموت الاسرا ـ امريكية بقذف كل ما تحمله من «منجزات» هذا العصر على المخيمات الفلسطينية في بيروت، وحتى قبل أن تنشب الحرب الشاملة أنيابها في الدم الفلسطيني والجسد اللبناني، تظاهر الألوف في قلب شوارع تل أبيب تحت الشعار: «لا اجماع قومياً حول الحرب». وظلت القاعدة الشعبية لهذا الشعار تتسع مثل كرة الثلج حتى بلغت الذروة في مظاهرة الأربعمائة ألف في تل أبيب تنديداً بمجزرة صبرا وشاتيلا وبضلوع حكام إسرائيل في تنفيذها.

وكانت ردود الفعل المكتوبة (الابداعية)، التي حاثت بدايات هذا التطور، وعاءً له ومجسداً لدلالاته. وان هذه الكتابات، التي حملت في ثناياها صورة الأيام الأولى للحرب ووقائعها وحقائقها،

تجعل تلك الصورة حية في أذهان الناس وتتيح للمهتمين والدارسين أن يتبينوا، بالمقارنة، ما كانت عليه وما صارت إليه. وما استهدفت من غايات وما تحقق من غاياتها. وفي ظروف الحرب يكون المقياس الجمالي للكتابة الإبداعية ليس في درجة فنيتها فقط وإنما في درجة صدقها وحرارتها ومقدرتها على توصيل الحرارة إلى الذين تتوجه إليهم.

ولا يغير من أهمية التحول، الذي تكمنه هذه الكتابات، تجسم ردود الفعل الابداعية المباشرة تلك على مستويين: الأول تحلى بواقعيته والثاني ظل يعاني التأزم بتأثير الأزمات التي توالت على الصهيونية.

أما الذين تحلوا بالواقعية فقد رأوا، حتى في ذروة الوهم المميت بأنه يمكن إنزال ضربة عسكرية قاصمة بحركة التحرر القومي الفلسطينية يكون من نتائجها تغييب القضية الفلسطينية، إلى أنه لا حلّ عسكرياً لقضية الشعب العربي الفلسطيني، بل ان بعض هؤلاء تجاوز ذلك إلى درجة الوعي والادراك بأن حل مأساة المواطن الاسرائيلي (ضريبة الدم والأزمات الاقتصادية وظواهر العنف، والاجرام والفساد المشتطة) يتأتى عبر حل مأساة الانسان الفلسطيني (أي إنهاء التنكر لحقوقه القومية المشروعة وكفّ المحاولات المستمرة لضرب وجوده القومي). ومن هذا البعض الكاتب يهودا يعري الذي وجه إلى جميع الصامتين في دنيا الصمت «صوتاً من السكون» قال فيه:

«يصبح واضحاً أنه يستحيل إيجاد حل بالقوة لأمر يستحيل حله بالقوة. لا يتم إحراز السلام بالقوة مثلما أن الحب لا يتم تحصيله بالقوة. كذلك الأمر بالنسبة للحبيبة والجيرة الحسنة.

لا يمكن تنصيب رئيس بالقوة، وبالقوة لا يمكن التثقيف ونشر الفرح.

الذي يمارس الذبح مصيره أن يمارس الذبح به ذات يوم والذي
يجيز الذبح تقوده حياته، في النهاية، إلى هوة سحيقة. والذي
يسيطر بقوة الحراب ستنغرز الحراب في مؤخرته ذات يوم.

الذي يقطع المياه عن الأولاد تنقطع مياهه عنه. وعندما يصرخ:
الكارثة! الكارثة!، سيجيبونه بلسانه: الكارثة»[1].

وأما ردود الفعل المأزومة، التي تشير بدورها إلى تعميق أزمة الصهيونية ـ فكراً وممارسة، فانبرت تناهض الحرب والقتل، بمنطق يميل إلى اليأس من إيجاد مخرج، تحت علامات استفهام كبرى: ماذا بعد؟ إلى أين يقودنا العار؟ ماذا يمكننا أن نفعل؟!

ورغم كون هذا الجانب من ردود الفعل تعبيراً عن مواقع التأثير الحاسم في وعي الجمهور إلا أنه يمارس تأثيره المحدود من خلال الحث على التفكير والتأمل ومخاطبة الأحاسيس والإشارة إلى مكامن الداء بعجز متأصل عن وصف الدواء. فهذا الشاعر أربيه سيفان يقول في قصيدة له بعنوان «مأزق شاعر (بصياغة بسيطة جداً)»:

«ماذا يفعل شاعر يشك/ بأن ملكه ليس سوى شيطان؟!
يجلس على طاولته وينظم قصيدة جيدة
يذهب فيها بعيداً/ يغني ويصنع شهادته
ويعطي من خلالها تعبيراً رمزياً من شأنه
ـ باسلوب الكشف والتستر الدقيق/
جرياً على فن القصيدة الصحيحة ـ
أن يظهر الجريمة الزاحفة عليه/ مثل أفعى سام!
يقرأها الذين يفهمون/ يتمزقون ألماً
يشكرون الشاعر بنفس صاخبة/ على قصيدته الرائعة حتى العظم

(١) صحيفة: دفار، ١/١٠/١٩٨٢.

وفي هذه الأثناء/ يبقى الشيطان واقفاً
يخطط لمؤامرة رهيبة»[٢].

وفي سياق قصيدته يدعو سيفان أصحاب القلم إلى تكسير أقلامهم فهي تبدو ضعيفة في مواجهة الشيطان.

يقيناً أن الصهيونية لم ترد الحرف والقلم أكثر من أن يكونا مخلوقاً كسيحاً، لقمة مستساغة في فم مشاريعها الجهنمية. بيد أن إيثار التقوقع وتكسير القلم على الاستمرار في الضعف، كما يبدو في هذه القصيدة، يشير إلى نوع من التذمر بقدر ما يشير إلى انفراط في مسبحة «الاجماع القومي الصهيوني».

أثر المذبحة البشعة في مخيمي صبرا وشاتيلا قامت زوبعة عاصفة بين أوساط الرأي العام الاسرائيلي لا تزال أصداؤها تتردد حتى يومنا هذا. ويخطىء من يعتقد أن هذه الزوبعة هي مجرد «صحوة ضمير» عابرة. إن حدود هذه الصحوة تمتد أبعد من ذلك بكثير لتكرس حالة الانهيار في صميم «اجماع الأحزاب الصهيونية القومي» (بارومتر هذا الاجماع: حالة الحرب!). وهي كذلك تضع حقائق جديدة أمام أعين أبناء الشعب الاسرائيلي، الذين يضع حكامهم مصيرهم على كف عفريت بإصرارهم على تحكيم القوة والمدافع منظاراً لكل التطورات.

هذا التكريس جعل الكاتب عاموس ايلون[٣] يفرز ما بين ثقافتين داخل اسرائيل ـ ثقافة الذين بقيت في عروقهم ذرة من إنسانية وثقافة الذين يمجدون سياسة المجازر والقتل والتدمير.

---

(٢) صحيفة: **يديعوت احرونوت**، ١/١٠/١٩٨٢.

(٣) صحيفة: **هآرتس**، ١/١٠/١٩٨٢.

كتب يقول:

«بهذا الشكل أو ذاك أسهمنا، جميعاً، في التفسخ الثقافي العميق بين أوساط صاخبة وبين أوساط لا مبالية. هؤلاء تأثروا بمذبحة بيروت وأولئك لم يفهموا ببساطة ماذا أرادوا منهم! هؤلاء اعتبروا الاحتجاج واجباً أخلاقياً سامياً. وأولئك اعتبروه خيانة عظمى. هؤلاء تقوقعوا على أنفسهم خجلاً وأسىً. وأولئك لم يروا داعياً خاصاً للتأثر وبدل صب جام غضبهم على المجرمين، الذين حولوا اسرائيل إلى شريكة في ارتكاب مذبحة جماعية، ادعوا بأن المجزرة ليست من شأنهم وقالوا (كفوا عن تعليمنا الأخلاق واحترام حياة الإنسان)»[٤].

وصحوة الضمير هذه جعلت كاتباً مثل شالوم روزنفيلد، المعروف بمواقفه اليمينية، يكتب في «زاويته الحادة» قائلاً:

«غداة المذبحة في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وعندما وقفت أمام المرآة لأحلق ذقني، كعادتي في كل صباح، بصقت في وجهي وقلت في نفسي: استاهل»[٥].

أما الشاعر والكاتب الساخر يهونتان غيفن فكتب يقول:

«للمرة الأولى في حياتي أشعر بالخجل لكوني مواطناً في دولة اسرائيل. دولة ينعدم فيها القلب والعقل وتبقى العضلات والأكاذيب. هل «منارتنا للأغيار» هي القنابل المضيئة للجزارين؟!.. لن تفلت من العقاب يا وزير الحربية فليس جميعنا ساذجاً وليس جميعنا أعمى وليس جميعنا جباناً. نحن خجلون ولهذا خرجنا إلى الشوارع. إننا نفخر بانتسابنا إلى معسكر الخجل لا إلى معسكر الكذب.. يا سيد بيغن لقد آن الأوان لأن تستيقظ وتقيل حكومة الظلام التي تترأسها. وعندها ينتشر الضوء.

---

(٤) لم يحول المجرمون اسرائيل، شكلياً وموضوعياً، إلى شريكة في ارتكاب المذبحة المروعة ذلك انها ارتكبت بمعرفة قوات الغزو الاسرائيلية مسبقاً وبحماية الدبابات والمدافع والكشافات الضوئية الاسرائيلية. وتتكشف، باستمرار، حقائق لا ترد تشير إلى صحة ذلك.

(٥) صحيفة: **معريف**، ١٩٨٢/٩/٢١.

«في كل مناسبة تقول «أولادنا»!
فمن أجل أولادنا نقول: دع أولادنا يكبرون بدون وصمة قايين.
ومن أجل أولادهم ـ افعل شيئاً! فأولادهم هم أولاد أيضاً.
قنابلنا المضيئة ليست مناراً للأغيار إنما موتا للأغيار وعاراً لليهود.
اننا خجلون. وخجلنا هو لجنة التحقيق معكم».

وصحفي آخر، هو ليفي يتسحاق هيروشلمي، رأى أن الصمت على الجريمة هو تواطؤ معها ومع مرتكبيها. كتب يقول تحت العنوان «إثم الصمت»:

«إن إبداء مشاعر الزعزعة جراء المذبحة المروعة في مخيمات اللاجئين في بيروت غير كاف. إن كل ما قيل وما سوف يقال حول الجريمة الآثمة ليس به ما يعرب عن القرف منها».

ويضيف:

«ومن المتعارف عليه أن لكل فرد ولكل جمهور «خطأ أحمر» لا يحظر على نفسه تجاوزه. أفلا يوجد «خط أحمر» كهذا يحظر تجاوزه لدى أحزاب «المفدال» و«الليبراليين» و«اغودات يسرائيل» وحتى «حيروت»؟! هل كل شيء مجاز! هل كل شيء مباح؟! هل يجب ترديد كلمة «آمين» وراء كل ما يمارسه وزير الحربية، قولاً وفعلاً؟! ألا يوجد عقاب، ومن يعاقب»؟![٦].

وانعكس انهيار «الاجماع القومي»، أكثر ما انعكس، على أحد «رموز» هذا الاجماع ـ الصحافة ووسائل الاعلام المختلفة.

وفي غمرة الحرب انعقد «المهرجان الثالث للمسرح الاسرائيلي الآخر» بين أسوار عكا القديمة (١٩٨٢/٦/٢). ولوحظ في هذا المهرجان تمترس قوات الشرطة وحرس الحدود بأعداد غفيرة مدججة بكامل عتادها.

بيد أن هذا «الحضور المسلح» وتوزيع الجوائز بموجب اعتبارات سياسية (رئيس لجنة التحكيم موشيه شمير، المعروف

---

(٦) صحيفة: **معريف**، ١٩٨٢/٩/٢١.

بمواقفه الفاشية التي تمثلها في الكنيست غيئولا كوهين) لم يؤثرا على مضمون غالبية المسرحيات المشاركة في المسابقة. فمن مجموع تسع مسرحيات انصبت خمس مسرحيات على معالجة الوضع السياسي ـ الاجتماعي في اسرائيل واسقاطات الحرب عليه. ومع أن بعض هذه المسرحيات بقي يراوح في نطاق الفكر الصهيوني المأزوم، الذي حلل المشكلة وعجز عن تقديم الحل، إلا أن احدى المسرحيات وهي بعنوان «أكباش» ـ وضعت المسألة في حجمها الطبيعي. وطول مدة العرض تقمص الممثلون أدوار الأكباش. وحين كانوا يستعيدون آدميتهم كانوا يطرحون السؤال: «هل كتب علينا أن نكون أكباشا تساق طوعاً إلى المذبح؟».

وللمرة الأولى في تاريخ «حروب اسرائيل» تساق «بقرات مقدسة» إلى مذبح الثمن الباهظ الناجم عن الحرب، وبين ظاهرة تمرد وأخرى أطلت بعض الوجوه المعروفة تتساءل: هذه الحرب في خدمة من؟! وهذا الثمن الباهظ ماذا يعوضه؟! «سلام الجليل» تحول إلى مقبرة ترقد فيها أجداث أعداد كبيرة من الجنود الاسرائيليين. والسلام المنشود غير ماثل للعيان البتة. ولم يخل هذا التساؤل من عناصر الجرأة.

في مقطوعة بعنوان «صينية من الفضة ١٩٨٢» عقب الأديب عاموس عوز على أقوال نسبت إلى رئيس الحكومة، بيغن، ولم يكذبها أحد مفادها ما يلي: «لقد أعطينا الولايات المتحدة هدية: لبنان نظيفة وحرة وموالية للغرب (على صينية من فضة). ومقابل هذا تريد الولايات المتحدة أن تأخذ منا يهودا والسامرة وقطاع غزة».

يقول عوز:

«.. وتسكت الأرض. وأمام الأعين
المندهشة تتكشف الأمور

في الصحيفة:
اسرائيل تقتل، تقتل، تحارب
لكي تعطى لبنان
لأمريكا.
لماذا مات يوآف وغادي ودان
لكي يعطي لبنان
«لليونايتيد ستيتس» (الولايات المتحدة)
حرقنا واحترقنا حتى المعركة الأخيرة.
ليس عبثاً بدون حساب وفضيلة:
كنا صينية الفضة التي أعطي لبنان عليها
للعم سام
الذي لا يقول شكراً»[٧].

أما البروفيسور زئيف شطرنهل فقال في مقابلة أجرتها معه صحيفة «عل همشمار»:

«يتحول المجتمع الاسرائيلي، بشكل تدريجي، إلى مجتمع تحكمه طغمة ديكتاتورية صغيرة مؤلفة من قائد منظمة «الاتسيل» السابق وقائد أكثر عمليات منظمة «الليحي» إرهابية وقائد الوحدة ١٠١. إن المسؤول عن دير ياسين وعضو القيادة المسؤولة عن مقتل برنادوت والمسؤول عن قبية ـ هم المسؤولون الوحيدون عن المجتمع الاسرائيلي الراهن»[٨].

وهذا الكاتب والمخرج المسرحي يهوشوع سوبول يقول في مقابلة مع مجلة «هعولام هزيه»:

«يقودنا مجرمون من الواجب لجمهم. واننا نحيا في واقع رهيب يرقص فيه آكلة لحوم البشر. والغريب أن بعضنا يشعر بأنه صادق»[٩].

---

(٧) صحيفة: **دفار**، ١٩٨٢/٩/٧.

(٨) صحيفة: **عل همشمار**، ١٩٨٢/٩/٢٦.

(٩) مجلة: **هعولام هزيه**، ١٩٨٢/٩/٢٩.

الاسرائيلي البشع في خريف ١٩٨٢
قراءة في رحلة عاموس عوز الاستطلاعية

من الأمور التي شهدها الوسط الثقافي والصحافي الاسرائيـلي في خضم العـدوان عـلى لبنـان نقـاش واسـع حـول دور الأديب والصحفي في المعركة ومدى فاعلية ما ينتجه الأديب والصحفي في تجنيب الشعب الذي ينتميان إليه ظواهر حبلى بالكوارث عبر التنبيـه إلى العوامـل التي تجعل هـذه الظواهـر تلـد الكـوارث منتصبة على حوافرها السوداء.

وكان من مستحصلات هذا النقاش رحلة استطلاعيـة قام بهـا الأديب عـاموس عـوز ونشر انطباعـاته عنهـا تبـاعـاً في الملحق الأسبـوعي لصحيفة «دفـار» ثم صدرت مجتمعـة في كتاب عن «منشـورات عام عـوفيد» تحت العنـوان «هنـا وهنـاك في أرض اسرائيـل (المقصود اسرائيـل زائد المنـاطق المحتلة ـ المؤلف) ـ خريف ١٩٨٢».

يمكن القول عن ريبورتـاجات عـوز انها أدب سيـاسي نابـع عن رغبة مؤلفه في التأثير مباشرة على مواقف قرائه السياسيـة عبر مخـاطبة وعيهم، جمـاعات وأفـراداً. ولذلـك فانـه لم يلجـأ إلى تـوظيف أسلوبـه الأدبي فحسب بل انـه ينتقد ويحـذر، يجلـو ويستبطن، يسقط هموم الماضي على الحاضر وبـالعكس من أجل استشراف المستقبل.

ويبدو جلياً من فصول الكتاب، وخصوصاً الفصل الختامي، أن العدوان على لبنان قد أوقع المؤلف في مأزق حـاول تجاوزه عبـر سبـر غور المجتمـع الذي يتحمـل، من وجهة نظـره، المسؤولية كاملة جراء هذا العدوان وموبقـاته. وارتـأى أن يحقق ذلك من خلال إبراز المستجدات على الصعيـد الاسرائيلي التي تـراكمت

بعدما أسمي في القاموس السياسي الاسرائيلي «انقلاب ١٩٧٧» (صعود الليكود إلى سدة الحكم بعد تربع المعراخ عليها لمدة ٢٩ عاماً متواصلة).

تتوزع رحلة عوز الاستطلاعية على ثلاثة محاور:

المحور الأول: دراسة الاجراءات الاجتماعية والسياسية والمعتقدات العقلية التي استشرت منذ «انقلاب ٧٧» ومن شأنها، وفق اعتقاده، أن تهدد بالخطر صلب المجتمع الاسرائيلي ودولة اسرائيل. ومن بين هذه الاجراءات: تعاظم نفوذ القوى الدينية الغيبية المعادية «للصهيونية العلمانية». والتقاطب المتعاظم بين أبناء الطوائف الغربية (الاشكنازيون) وبين أبناء الطوائف الشرقية (السفاراديون). وازدياد مظاهر التطرف اليميني.

المحور الثاني: التقاء ومحاورة مواطنين فلسطينيين لإلقاء الضوء على مواقفهم ازاء مستجدات الواقع السياسي الاسرائيلي.

المحور الثالث: تحديد الأماكن التي لا تزال تستظل بما يسميه «الصهيونية المتعلقة والليبرالية» التي يؤمن بها ويسعى لأن يكرسها في ذهنية الجماهير الاسرائيلية. وفي هذا المحور يبث عوز الفكر الذي يسترشد به ويصيغ رؤياه للمستقبل الذي يبشر به، مواطناً ونبياً.

■ مجتمع موبوء بالكراهية للعرب

المحطة الأولى في رحلة عوز هي في المنطقة التي شهدت طفولته (أحياء القدس الشمالية الغربية). البعد الزمني لهذه الرحلة يمتد عبر الماضي من خلال استعادة ذكريات الطفولة وملاعب الصبا وعبر الحاضر من خلال وصف الحالة التي آلت إليها

الأحياء راهناً وعبر المستقبل من خلال نقد الراهن.

إن الماضي هنا الذي كان بالنسبة للرحالة مجتمعاً تعددياً حوى شتى الفئات الاجتماعية ذوات الثقافات المختلفة أخلى مكانه، حاضراً، لمجتمع أرثوذكسي يتبع نمط «الغيتو» والتقوقع اليهودي ويكفر بكل ما يحيد قيد أنملة عن أسفار التوراة. والأخطر من ذلك مجتمع موبوء بالكراهية للعرب والغوييم (الأغيار).

وتبرع مدرس في المدرسة الدينية لشرح ماهية هذا المجتمع. فطلاب أحياء «الغيتو» يتعلمون التوراة صبح مساء ولا يتعلمون العلوم الطبيعية لأنها رجس من صنع الشيطان. ولا يتعلمون المواضيع المهنية. لماذا؟!. أشار المدرس إلى عمال بلدية القدس العرب (وكانوا يعملون في ترميم سقف المدرسة) وقال:

«ولماذا خلق الله هؤلاء؟! ولماذا سمّي اسماعيل بهذا الاسم؟! هل تعرف؟ بالتأكيد لا. سأقول لك: سماه كي يسمع ما يأمره به اسحق»[١٠].

وسأله عوز:

هل تعلمونهم التاريخ العام؟

أجاب:

«حاشا وكلا. نحن شعب يعيش لذاته ولن يحسب للغوييم أي حساب. فما لنا ولهذه النجاسة؟! هل تريدنا أن نعلم أطفالنا القتل والنهب والسطو؟» (التي هي من نصيب الغوييم فحسب في عرف هذا المجتمع)[١١].

المحطة الثانية هي بيت شيمش، حيث اتسم التقاطب

(١٠) عاموس عوز، **هنا وهناك من أرض اسرائيل** (تل أبيب: منشورات عام عوفيد، ١٩٨٢)، ص ١٤.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٥.

الاجتماعي ـ الطائفي بطابع عنيف خلال انتخابات ١٩٨١ البرلمانية. وفي هذا الفصل (وهو بعنوان «الاهانة والغضب») ينقل عوز مونولوجاً جماعياً على السنة عدد من مواطني البلدة محتفظاً بالتراكيب اللغوية والأسلوب الذي تكلموا به.

وفي مركز هذا المونولوج كراهية عمياء للأشكنازيين متأصلة بين أوساط شبيبة أبناء الطوائف الشرقية. كراهية جذورها ناجمة عن واقع مستمر منذ قيام اسرائيل، قائم على الغبن الاجتماعي ومحاولات الإذلال. وهذه الكراهية على ما تحويه من انحراف هي نقطة في بحر الكراهية البهيمية المتجذرة في نفوس هذا الرهط للعرب لمجرد كونهم عرباً.

المحطة الثالثة في رحلة عوز هي المستوطنتان الكولونياليتان «تكوع» و«عوفرا» و«موشاف» أمسك عن ذكر موقعه. وهي محطة مركزية تنمذج جماع الفكر الذي يسترشد به أفراد سوائب المستوطنين.

في «تكوع» يلتقي عوز الزوج مناحيم وهارييت: هو من أصل يمني. وهي من أصل امريكي. هو نفعي وهي متدينة متطرفة نشطت في تشجيع عمليات «الهجرة إلى اسرائيل». فلسفة هارييت الحياتية أفعوية جداً، كما يؤكد عوز، سرعان ما تبادرك بسمها الزعاف:

> «إني لا أؤمن بأنه يمكن إحلال السلام. فكراهية الغوييم لشعب اسرائيل هي كراهية سرمدية. لن يستتب سلام بيننا وبينهم البتة إلا عندما يقضي أحدنا على الآخر. من المحتمل أن يستتب السلام عندما يجيزون لفرد مثل اريل شارون بأن يقضي عليهم بأقصى سرعة ممكنة وبأن يدمر دولهم. عندها يفهم العرب اننا أحسنا صنعاً إليهم بأن أبقيناهم على قيد الحياة»[١٢].

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

ولا تحسب هذه «الفلسفة الأفعوية» الحساب لموافقة العرب عليها أو عدم موافقتهم. فعندما تساءل عوز «وهل يوافق العرب على أن يعيشوا تحت حكمنا ويعملوا لدينا في الأعمال السوداء؟»، بدت علامات الامتعاض على هارييت وأجابت «لماذا تستغرب؟! ألم يرد ذلك في التوراة؟ ألم يرد ذكر الحطابين وسقائي الماء؟! هذا عقاب سهل جداً بالنسبة لقتلة مجرمين».

وعند هذا المنعطف يتشجع مناحيم، زوج هارييت، فيكشف عن فلسفته. يقول:

«إني أشد تطرفاً من هارييت بيد أني أرى ممكنات جيدة لأن نتعايش بحسن جوار مع العرب. متى؟! بعد أن يفهموا جيداً أنهم قاطنون لدينا بمنّة وليس عن حق. اني أجيد اللغة العربية فقد عملت معهم. وعائلتي من أصل يمني. اننا نعرف أن العربي هو مخلوق طيب القلب ومطيع إذا لم يكن ثمة من يحرضه ويحشو رأسه بأفكار جهنمية. العرب لا يشتهون الحروب. لكنهم مجبرون على أن يعرفوا مكانتهم بالتحديد. وما هي مكانتهم بالتحديد. أن يعيشوا عندنا إذا أرادوا ذلك. ولما لا. ليعملوا وليكسبوا قوتهم. ليعيشوا بين ظهرانينا مثل الدروز وليخدموا في الجيش. لما لا؟!»[١٣].

إن أفعوية هارييت وبهيمية مناحيم تتضاءلان ازاء الوباء النموذجي الذي يعشش في رأس «المواطن تصادق» (طلب عدم نشر اسمه). أو يصح الافتراض فيه بأنه معادلة الفكر المتوحش لعصابات اليمين المتطرف في اسرائيل ١٩٨٢).

و«المواطن» تصادق «(الذي أمسك عاموس هوز عن كشف هويته وعنوانه تلبية لرغبته) هو من سكان احدى المستوطنات (موشاف) الواقعة في الجهة الغربية من «الخط الأخضر». يجمع في شخصه، بالنسبة للمؤلف، بين الصهيوني «الطلائعي»

(١٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

الجلف، الذي لا يزال يعمل في الأرض، وبين الاسرائيلي البشع، الذي اختط لنفسه ايديولوجية انتقامية لم يدع فيها موطىء قدم لأية قيمة انسانية.

وهذا النموذج البشري حبيس الصلاة التوراتية التي تدعو إلى التسبيح بحمد السيد وتعظيم خالق الكون وتبجيله «على أنه لم يخلقنا كباقي أغيار الأرض ولم يضعنا موضع عائلاتهم ولم يجعل نصيبنا مثل نصيبهم ولا مصيرنا مثل بقية الناس».

لقد وجدت شبهاً كبيراً بين «فلسفة» هذا النموذج وبين «فلسفة» الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه حول «السوبرمان»، التي اعتمدها هتلر فيما بعد أساساً لنظريته النازية والوحشية. لقد ذهبت هذه «الفلسفة» إلى أن أعظم الشرور إنما هي أعظم الخيرات للإنسان المتفوق. وسأحاول أن أقدم في سياق هذا المقال أمثلة على هذا الشبه من مؤلف نيتشه «هكذا تكلم زرادشت».

«من جهتي - يروى المواطن «تصادق» - تستطيع أن تلصق باسرائيل أية وصمات ترغب. تستطيع أن تصفها بأنها نازية - يهودية. كما فعل ليبوفتش، ولما لا؟ نازية يهودية أفضل من قديس ميت. لا أطلب أن يودني الغوييم ولا أحتاج لمودتهم ولمودة أمثالك من اليهود. علي أن أعيش. وأرغب في أن أجعل أولادي ينعمون برغد العيش. وكل من تسول له نفسه أن يرفع يده على أولادي سأسحقه وأسحق أولاده شر سحقة - مع طهارة السلاح المشهورة أو بدونها - ولا يهمني إذا كان ذلك مسيحياً أو مسلماً أو يهودياً أو عابد أوثان. فعلى مدى التاريخ كل من لم يستطع أن يمارس القتل فاجأه الجيران وقتلوه. ذلك هو القانون الحديدي. حتى لو برهنت لي، بشكل علمي، ان الحرب التي نشنها الآن في العمق اللبناني - لم نفرغ منها

حتى الآن ـ هي حرب قذرة وغير أخلاقية وليست من مقامنا فليس ذلك من شأني. وأكثر من هذا: إذا برهنت لي، بشكل علمي، اننا لم ولن نحقق في لبنان أي هدف، لا فرض نظام حكم صديق ولا قصم ظهر السوريين ولا تصفية م.ت.ف. ولا حداد ولا الأربعين كيلومتراً، فليس ذلك من شأني، لم يكن هناك بد من شنها. وإذا اتضح، فيما بعد، أن الجليل سيتعرض لقصف الكاتيوشا فهذا أيضاً ليس من شأني. لأنه عندها نشن حرباً إضافية مثل هذه الحرب ونقتل وندمر أضعافاً مضاعفة حتى يضيق عدونا ذرعاً بالحروب».

وقبل أن ينبه المؤلف محدثه إلى ما يمكن أن تثيره تصريحاته آنفة الذكر من مشاعر قرف واشمئزاز بين الأوساط المتحضرة في العالم انبرى يشتم العالم من أقصاه إلى أقصاه:

> «الخراب القليل الذي ألحقناه بصور وصيدا والتدمير في عين الحلوة (خسارة أننا لم نفن وكر الثعابين هذا عن بكرة أبيه) والغارات المحكمة على بيروت والمذبحة الصغيرة ـ ذبح خمسمائة عربي يسمى مذبحة؟ ـ التي وقعت في ذينك المخيمين (خسارة أن الكتائب ارتكبوا ذلك بأيديهم وليس نحن بأيدينا الناعمة) ـ كل هذه الأفعال والممارسات الحميدة أخرست وإلى الأبد الثرثرات البالية عن الشعب المختار والنور للأغيار»!

(وكيف تكلم زرادشت نيتشه:

> «أنا لا أريد أن أكون نوراً لأبناء هذا الزمان ولا أن أدعى نوراً ما بينهم لأنني أريد إيراثهم العمى فلتنزل على أعينهم صاعقة حكمتي»).

***

وإلى من تنتسب اسرائيل المواطن «تصادق» بهذه الأيديولوجية الحيوانية؟! تلك قضية من شأنه:

> «قل لي بربك أية سلبية في حياة المجرمين؟! من الآن فصاعداً بودي

أن أرى إسرائيل عضواً في نادي المجرمين فلربما، أخيراً، يبدأ العالم يخاف مني بدل أن يشفق علي. وليلصقوا بالدولة وصمة البربرية. يجب أن يفهموا اننا دولة وحشية واننا غير طبيعيين ومن شأننا أن تأخذنا هستيريا على حين غرة لمجرد أن يقتلوا لنا ولداً واحداً ـ واحداً فقط ـ وينفلت عقالنا لنحرق كل حقول النفط في الشرق الأوسط. ليأخذوا بالحسبان في واشنطن وموسكو ودمشق والصين أنه إذا أطلق الرصاص على أي سفير ـ أو حتى قنصل أو على ملحق لشؤون جمع الطوابع ـ فمن شأننا، هكذا على حين غرّة، وقبل وجبة الفطور أن نشعل لهيب حرب عالمية ثالثة».

(زرادشت ـ نيتشه «دعوني أعلن لكم الحقيقة. لتكن أنظاركم منطلقة تفتش عن عدو لكم وقد لاحت في لمعاتها بوادر البغضاء. عليكم أن تجدوا العدو لتعملوا معه حرباً. أحبوا السلام وسيلة لتجديد الحروب. وخير السلام ما قصرت مدته. تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب أما أنا أقول لكم ان الحرب المثلى تبرر كل غاية. فقد أتت الحروب والأقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا اقدامكم لا اشفاقكم»).

هذه الظاهرة يصح وصفها بالوحشية بحيث يصبح كل ما هو إنساني غريباً عنها مهما يختلف لونه وشكله وانتماؤه القومي. هكذا يصبح الاسرائيليون المتنورون في نظر هذه الظاهرة، خونة يستحقون نصب أعواد المشانق، ويبلغ الشطط بها حد اعتبار «الثمرة المعسولة» (بأل التعريف) للعدوان على لبنان هي وضع اليهود في العالم كله في سلة واحدة القاسم المشترك لهم هو «وصمة العدوان وموبقاته». و«السلة الواحدة» تعني، استطراداً، المصير الواحد الذي يتسم الآن بصفة العنف «طالما استمرت حربنا من أجل مجرد وجودنا فكل شيء مجاز. وكل ممنوع مجاز وبضمن ذلك تشريد كل العرب عن الضفة الغربية. كلهم بدون استثناء».

لكأن «تصادق» يقول للاسرائيليين: إياكم وممارسة الفضائل فهذا ما لا طاقة لكم به. و«قداسة» آبائكم، التي يعتبرها

المسترشدون بالفكر الصهيوني «قداسة» هي رذائل. ومن العبث أن يطالب بالعفة من تمرغ آباؤه بالرذيلة:

«لو كان آباؤنا البررة بدل أن يكتبوا مؤلفات عن الحب جاؤوا إلى هنا في الوقت المطلوب وأبادوا ـ أمسك بكرسيك جيداً! ـ ستة ملايين عربي أو حتى مليونا واحداً. ما الذي كان يحصل؟! بالتأكيد كانوا سيكتبون عنا صفحتين أو ثلاث صفحات غير حميدة في كتب التاريخ وستلحق بنا شتى النعوت، لكن، بالمقابل، كان بمقدورنا أن نصبح هنا، الآن، شعباً تعداده خمسة وعشرون مليونا. وكان كتابنا سينشغلون، مثل غينتر غراس وهاينريخ بيل، بكتابة الروايات الجميلة المؤثرة حول الشعور بالذنب المسيطر علينا وحول العار ومشاعر الندم وكانوا يحوزون بذلك على عدة جوائز نوبل للأدب والأخلاق. وربما كانت الحكومة تدفع تعويضات للعرب الذين لم يكف الوقت لإبادتهم».

وعند هذا المقطع عيل صبر «تصادق» فبدأ يرغي ويزبد واندفع كمن استولى عليه الجنون صارخاً:

«اسمع، انني مستعد اليوم أن أتطوع من أجل القيام بهذه المهمة القذرة لصالح شعب اسرائيل فأقتل عرباً حسب الحاجة وأهجرهم وأشردهم وأحرقهم وأزيد مشاعر البغضاء ضدنا وأشعل أديم الأرض تحت أرجل يهود الشتات ليولوا الأدبار سريعاً إلى هنا. حتى لو احتجت في سبيل ذلك لأن أفجر بعض الكنس هنا وهناك. لا يهمني. ولن يهمني فيما لو قدمت لمحكمة على نسق محاكم نورنبرغ بعد خمس دقائق من فراغي من هذا العمل القذر وليلقوا بي مؤبداً في غياهب السجون».

(زرادشت ـ نيتشه «اني لن أرضى بتوقف الصاعقة عن انزال الأذى ولا أريد أن تتحول عن مسلكها حين تنقض. بل أريد أن تسدد مرماها وتخدم مقاصدي. لقد تجمعت حكمتي طويلاً وتكاثفت غمامة يتزايد اربدادها وسكونها. ذلك شأن الحكمة التي قدر لها أن تقذف بالصاعقة يوماً من الأيام»).

أطلق «تصادق» كل هذه الاعترافات وهو يؤكد، بالحركات

والنبرات، إنه مخلص للفكر الصهيوني الذي يمثله شاعر مثل أوري تسفي غرينبرغ ومفكر مثل ليلنبلوم وللفكر اليهودي الغيبي الذي يمثله الرمبام (الذي قال: «ان الذي أضاع ملكنا ودمر هيكلنا وأطال سبينا هو الخطأ الذي ارتكبه آباؤنا حين لم يعكفوا على دراسة أساليب الحرب واحتلال الأرض»). وهذا الفكر الصهيوني لا يزال يترقب الفرص ليكمل مهمته: «كلكم لا تنجحون في استيعاب حقيقة أن عمل الصهيونية القذر لم يكتمل بعد. كان يمكن الانتهاء منه في العام ١٩٤٨ بيد أنكم عرقلتم ذلك».

ومرت على عوز لحظات استغراق شبه له خلالها ان ما فعله هتلر بأبناء الطوائف اليهودية لم يكن مجرد ضربة ساحقة فحسب انما كان لسعة أفعى دست السم في بعض القلوب وبدأ الآن يفعل فعله في عقولهم. ولكن كيف لم يود السم بحياة الملسوع؟!

روى نيتشه ان «زرادشت» استسلم للكرى يوماً تحت شجرة تين وكان الحر شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعى ولسعته في عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بها فعرفت عينيه وتململت لتنصرف فقال لها زرادشت: «لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكري لأنك نبهتني في الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد». فأجابت الأفعى وفي صوتها رنة أسى:

> «بل سفرك قريب فزعافي قاتل». ابتسم زرادشت وقال: «وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنينا».

لقد حاول بعض الكتاب أن يتجاهلوا خطر هذا «التنين» بالادعاء أنه من نسج خيال عوز. وحاول آخرون أن يتجاهلوا هذا الخطر بالزعم ان «تصادق» شخصية ممسوسة فأية ايجابية ترجى في مجنون؟!

ماذا نجد عند تحليلنا لهذه الظاهـرة؟ كل شيء يثـير القلق. انها ظاهرة ذات أيـديولـوجية انتقـائية، وهـذا عنصر مشترك لكـل الحركات الفـاشية، وهي بـالدرجـة الأولى أيديـولوجيـة قوميـة جامحة. ونرتكب خطأ تبسيطياً إذا ما اعتقدنا ان هذه الظاهرة مقصورة على المواطن «تصادق» فحسب!

■ بديل عاموس عوز والبديل الواقعي

لقـد كان همّ عـاموس عـوز في رحلتـه الاستطـلاعيـة منصبّـاً، بـالأساس، عـلى وصف مجتمع مـوبوء عبـر نقـل انطبـاعـاتـه الشخصية عن هذا المجتمع والتحقيق في روحية ناسه ومضمون عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم. وممـا لاشك فيـه أنه أفلـح في جلوّ بعض عوارض هذا الوباء بمطواعية تثير الاعجاب. بيد أن تشخيص الـداء هنا لم يعقبـه وصف الدواء الشـافي منه ممـا جعل مهمة شفاء الموبـوء، التي أخذهـا عوز عـلى عاتقـه، مهمة مستحيلة.

وهناك جملة أسباب تجعل مهمة عوز مستحيلة مصدر جميعهـا هـو موقفـه الفكري المعبّـر عنه بجـلاء بين ثنـايا الكتـاب. وهو الموقف الفكري نفسه، الذي يجعل كتّاباً انسانيـين أمثال عـوز يتمسكون بالأيديولوجية الصهيونية تمسكاً انتقائيـاً يزعم بـأن جوانب إنسانية فيها وأن هذه الجوانب الانسانية تخلي نفسها، تدريجياً، لجوانب وحشية بفعل احكام سيطـرة أوساط الغيبيـة الدينية على قيادة الصهيونية السياسية. وهذا التمسك لا يحـل تناقضات أصحابه وتخبطاتهم التي لن تجد لها حلّاً، بالتأكيـد، في إطار هذه الأيديولوجية، ولهذا السبب أيضاً يعجـز أصحاب هذا الموقف الفكري عن اتخاذ مـواقف حاسمـة تتطلب أول ما تتطلب مناهضة الصهيونية، فكراً وممارسة. وسأحاول أن أبين في سياق هذا الاستعـراض نماذج من التنـاقضات التي يتخبط

فيها عوز فأفقدته البوصلة وجعلته يطرح بعض المواقف المغلوطة، جملة وتفصيلا.

خصص عوز فصلاً من كتابه (انطباعاته) عن الرحلة للتبشير بمواقفه الفكرية، مواطناً ونبياً. واختار أن ينقل ذلك عبر محاورة مع جمهرة من المستوطنين الكولونياليين من عصابة «غوش ايمونيم» التقاهم في مستوطنة «عوفرا» خلال تجواله. وعشية يوم التحاور جهّز عوز نفسه جيداً ـ على حد تعبيره. وسلّح رصيده السياسي ـ الأيديولوجي بمقتطفات من مقالة كان قد نشرها في صحيفة «دفار» بعد مرور شهرين على عدوان حزيران ١٩٦٧. ان فقرة واحدة من هذه المقالة ثبّتها عوز أكثر من مرة كانت كافية، بالنسبة لنا، لتوقع مسرب المعركة الفكرية قبل أن تحتدم بينه وبين المستوطنين وللإدراك بأن الفشل فيها سيكون من نصيب عوز ولن تغدو هذه المحاورة أكثر من كونها «حواراً بين طرشان»! جاء في هذه الفقرة «سيكون علينا أن نقيم لمدة شهر أو سنة أو جيل بكامله بصفة محتلين في الأقاليم التي اندفعت أفئدتنا إليها بفعل الحافز التاريخي ولكن شريطة أن نذكر: نحن محتلين جبرياً وكوسيلة ضغط من أجل تقريب السلام ولسنا فاتحين أو محررين».

أقول توقعنا أن يكون الفشل من نصيب عوز لأنه ما زال، بعد عشرين عاماً، حبيس اتجاه التهرب من تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية تحت تسويغ «الجبرية». و«جبرية» عوز هنا هي «جبرية» مطلقة. وهي أولاً وقبل كل شيء رياء من الناحية الأخلاقية وتضليل من الناحية النظرية وغير صائبة من الناحية العملية. أولاً جبرية في السياسة. فالسياسة والجبرية هما شيء ونقيضه المطلق.

ومن الناحية العملية التاريخية، ثانياً، من هذا الذي تسوّل له

نفسه (اللهم سوى بعض الأبواق الاعلامية الهجينة) ان يدعي بأن قيام حكام اسرائيل باحتلال مناطق عربية واسعة في حينه كان مسألة «جبرية»؟! كما أن رفض حكام اسرائيل التفاوض مع الشعب العربي الفلسطيني وسائر الشعوب العربية ورفضهم حتى مجرد الاعتراف بالوجود القومي للشعب العربي الفلسطيني لم يكن مجرد جبرية (بل ان مجرد افتراض وجود هذا الشعب من بعض العناصر المعتدلة اعتبر آنذاك «بدعة آثمة» أطارت النوم من عيون غولدا مئير). هل كان انتظار ديان لمكالمة استسلام هاتفية من عبد الناصر مسألة جبرية؟! لقد اختار حكام اسرائيل من كل الخيارات المطروحة طريق الحروب واحتلال أراضي الغير عن عمد وسبق إصرار.

وإذا صحّ الزعم بأن السذاجة البريئة هي التي أوحت إلى عوز أن يكتب الذي كتب قبل عشرين عاماً متأثراً بجو الغطرسة العسكرية والأوهام الصهيونية القاتلة التي عششت في ذهنية أوسع الأوساط الشعبية فليس ممكناً، بل انه من غير الجائز أن نشغل أنفسنا بدراسة العوامل، وبضمنها السذاجة البريئة أو التساذج التكتيكي، التي أوحت إليه اليوم أن يستعيد ما كتب لا لمحاولة نقد ذاتي جريئة بل فناراً لمحاورة سوائب المستوطنين! وهل يجوز «التحاور» مع أمثال هؤلاء عبر الاستظلال بضوء هذا الفنار؟! ماذا كانت النتيجة.

إذا كان عوز قدّم من حيث لا يدري وبسذاجة بريئة خدمة جلى لحكومة المعراخ (حزبه الحالي) إثر عدوانها الحزيراني بواسطة نظريته «الجبرية» فإنه الآن من حيث يدري يقدم لسوائب المستوطنين خدمات إعلامية جلّى باستلاله من جديد هذه النظرية فناراً لهديهم إلى سوي السبيل. أفلا يصح، مجازاً، تسويغ النشاط الاستيطاني الكولونيالي، على ما به من تسيًب عنصري يثير قلق عوز وأمثاله، بـ «الجبرية» المطلقة؟

ولا عجب بعد استهلال كهذا أن استنكف عوز في حواره مع المستوطنين عن التطرق إلى القضايا السياسية المصيرية وآثر التقوقع في صدفة «معتقداتكم ومعتقداتي» فحاضر حول اليهودية بوصفها حضارة. وفسّر ضرورة المزج بين ما أسماه «هويتنا كيهود» وبين «هويتنا الانسانية» (على طراز الانسانية الأوروبية الغربية).

ولم تخل معتقداته من طروحات خطيرة قدمها بديلاً لطروحات أيتام نيتشه. هذه المعتقدات التي تستحوذ على قطاعات واسعة من أمثال عوز بين الأوساط الاسرائيلية المتعلقة. ومن أهمها:

أولاً: معارضة الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة ومناهضة اجراءات تسريع ضمها إلى اسرائيل من منطلق ان هذا الضم من شأنه أن يشكل خطراً (ديمغرافياً) على وجود دولة اسرائيل وعلى نقائها اليهودي وليس من منطلق معارضة استعباد شعب آخر ومصادرة حقوقه وحرياته والتآمر على تشريده عن وطنه.

ثانياً: يذهب عوز إلى أن العلاقة بين الصهيونية وبين اليهودية الغيبية تتميز بالتناقض التناحري. والحقيقة أن الصهيونية استقت منابعها الفكرية من مصدرين جوهريين: من الأيديولوجية البرجوازية، التي تنتسب إليها منذ البداية، ومن الديانة اليهودية ومصدرها التوراة. ولقد أخفقت الصهيونية بسبب نظريتها المتعصبة وطابعها الطبقي بكونها أداة في خدمة البرجوازية اليهودية والامبريالية، سابقاً وراهناً. وبدل الاعتناء بحل مشاكل أبناء الطوائف اليهودية بواسطة إحداث تغييرات تقدمية سوية مع أبناء الشعوب، التي عاشوا بين ظهرانيها، قادت الصهيونية اليهود إلى حضيض التطرف القومي.

ثالثاً: حبس عوز نفسه في دائرة دراسة التطورات المقلقة التي

أعقبت ما يسمى في القاموس السياسي الاسرائيلي «انقلاب ١٩٧٧» (صعود الليكود إلى سدّة الحكم بعد تربع المعراخ، وهو الحزب الذي ينتمي عوز إلى صفوفه، عليها لمدة ٢٩ عاماً). وهذا الحبس الاختياري على ما به من نوايا طيبة باتجاه فضح الجوهر الرجعي الأسود لحكم الليكود كان محاولة لتبرئة ساحة قيادة المعراخ من الموبقات التي ارتكبتها حكومات، ولا تزال ترتكبها، معارضة، بحق الشعب الفلسطيني والشعوب العربية وبحق شعب اسرائيل نفسه.

إن التطورات المقلقة التي درس عوز مدى استشرائها وأفلح، كما أسلفت، في الإحاطة بها قد نمت بذورها إبان حكم المعراخ الذي بسياسته وبتنكره لحقوق الشعب العربي الفلسطيني أبعد فرص السلام وعبّد الطريق أمام صعود الليكود إلى سدة الحكم.

ولعل أخطر طرح يقدمه عوز هو نظرية التوازن. أي وضع الطرفين، العربي الفلسطيني والاسرائيلي، في وضع متساو بحيث لا نميّز بين المعتدي والمعتدى عليه، بين الجلاد والضحية. ان الهدف الأساس من وراء هذه النظرية هو توزيع المسؤولية جراء الصراع بين الطرفين عليهما بالتساوي. وهو ما نلحظه في غالبية الأدبيات الاسرائيلية المتشبعة بالفكر الصهيوني، حتى في تلك النماذج القليلة منها التي تتحلى بشيء من الواقعية.

وقد قدّم عوز أوضح دليل على نظريته هذه في معرض رده على مقال نشره الكاتب سلمان ناطور تعقيباً على انطباعات عوز (ملحق «دفار» الاسبوعي ـ ٧/١/٨٣).

كتب عوز موجهاً الكلام لناطور: «إن كونك كاتباً عربياً فلسطينياً يحتم عليك أن تكتب ـ بالعربية وإلى إخوانك من أبناء شعبك ـ

عن الوحشية والاستبدادية والحماقة التي ميّزت ولا تزال تميّـز القيادة الفلسطينية منـذ عشرات السنين والتي أدت عنـدنا إلى نشوء ظواهر مثل ظاهرة «تصادق الوحشية».

واستطرد «أما إذا كنت تعتقد، هكذا ببسـاطة، انـه على مـدى حـرب الثمانـين عامـاً الدائـرة رحاهـا على هـذه البقعة يـوجد اسرائيليون «أشرار» يقابلهم عرب «أخيار» فليست بيننا أية لغة مشتركة».

وتابع «إن مزراحي القوّاد ودانيئيـل الذي يخنق أسراه بخيـوط النـايلون وتصـادق موجـودون في الجـانب العـربي الفلسطيني (والسوري والسعودي والليبي الخ..) ليس أقل وربما أكثر مما هم موجودون عليه هنا»!

إن هذا النمط من التفكير إضافة لكونه باطلاً من أسـاسه فـإن واقع الحال يعطينا ما هو معاكس تمـاماً حيث ان الاسرائيليـين «الأشرار» هم هم الـذين استبـاحـوا حقـوق وممتلكـات شعب بأسره فالحقوا به المذابح وويـلات التشريد وعـرقلوا ومـا زالوا يعرقلون فرص تحقيق السلام العادل. وهم هم الذين ينفســون حقد شرورهم وآثامهم حروباً وتنكيلاً وقمعاً وحشياً وممارسـات سلب حقوق ومصادرة أراض وحريات ومحاولات إذلال قوميـة. والأنكى من كل ذلك أن جميع هذه الآثام جرى ارتكـابها تحت مسوغات «الجبرية» المطلقـة والمساواة بـين الجلاد والضحيـة، التي لا تـزال تضلل عـاموس عـوز وجميع الكتّـاب المؤدلجـين صهيونياً والمحبطين بفعل «عقـدة الذنب» تجـاه الشعب العربي الفلسطيني. ولا يغيّر من هذا حقيقة أن عوز حاول أن يستبطن شخصياته العربية بنـزعة أخـلاقية وبسمـات إنسانيـة، الأمر الـذي فشل فيـه معظم الأدباء الاسرائيليـين المتعقلـين الـذين يكتبون بروح «النقد الذاتي».

إن رحلة عاموس عوز، رغم كل سلبياتها، هي محاولة يغوص فيها بحثاً عن «الإنساني» في الموروث الصهيوني الذي من شأنه أن يعين المجتمع الاسرائيلي على الخروج من أزمته.

إن هذه المحاولة محكوم عليها بالفشل سلفاً، وهذا ما أشرنا إليه. بيد أن مجرد المحاولة وجديتها هما مؤشر سعي نظري قد يقود صاحبه إلى الوعي والإدراك المطلوبين.

■ الأغنية، أيضاً، تلتصق بفن الاحتجاج

الفنان والفن. الفنان والجمهور. الفنان والواقع ـ هذه هي أهم عناوين النقاش الذي احتدم بشكل واسع بعد حرب لبنان بين أوساط قطاعات كبيرة من فناني اسرائيل ونقادها. ولقد وجد هذا النقاش تعبيراً عنه، في الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة، في تحقيقين صحفيين موثقين: * الأول أعده دافيد اورن ونشر في ملحق «هآرتس» الاسبوعي[١٤]. والثاني بادرت إليه مجلة «لهيطون» الأسبوعية الفنية[١٥]. وهذان التحقيقان هما وثيقة باقية تشهد على أن الأغنية التصقت أيضاً بفن الاحتجاج ولم تكن منفصمة عن الانعطافات في المجتمع الذي تعيش فيه.

لقد استمزج اورن عدداً من فناني «الموجة الخفيفة»، مطربين وموسيقيين، حول رؤيتهم إلى دور الفنان في المجتمع. كانت النتيجة أن المسلمات الصنمية، التي شكلت في السابق قاسماً مشتركاً لغالبية فناني هذه «الموجة» وفي مقدمتها الموقف العدمي اللامسؤول: لا دخل للفنان بالسياسة والتاريخ، والدعوة للانكفاء على الذات والتنرجس حولها والسير في طريق لا يحمل رؤيا أصيلة ولا يرتبط بطموحات الجماهير قد أخلى

(١٤) صحيفة: **هآرتس**، الملحق الأسبوعي في: ١٩٨٢/١١/٤.

(١٥) مجلة: **لهيطوت** (أسبوعية)، عدد ١٩٨٢/٦/٧.

مكانه لمواقف سياسية تستمد جرأتها من صراحة دورها التحريضي المباشر.

المغني شلومو آرتسي أعلن: لقد تغيرت أشياء عديدة في البلاد لا نستطيع أن نتغاضى عنها ونواصل الحياة والتصرف وفق مسلمات ولّى زمانها ولا تتجاوب مع أمنيات قطاع واسع من الجمهور الاسرائيلي. والمغنية والممثلة حنة روت أعلنت أن خروجها على المسلَّمات الصنمية يمثل جانباً عنيفاً من عملية «عذاب ضمير» تعاني وطأتها. وأضافت «خرجت حتى يكون بحوزتي جواب إذا ما سألني أولادي في أحد الأيام: ماذا فعلت من أجل تغيير وجهة الأمور حين مرت على البلاد سحابة سوداء؟ إن خروجي هو الحد الأدنى مما يمكن للفنان أن يفعله»!

ويضيف أورن إلى هذه الأقوال ذكر المظاهرة التلقائية التي نظمها عدد من الفنانين في تل أبيب احتجاجاً على مذبحة صبرا وشاتيلا ومهرجان الفنانين تضامناً مع حركة الجنود «يوجد حد» المناهضة للحرب في لبنان على شاطىء الزّيب وغيره ويعلن: نحن أمام ظاهرة جديدة!

حقاً! وإن مجرد النقاش حول هذه المحاور، أعلاه، جدير بالاهتمام ذلك أنه بالإضافة إلى ما يمثله من أزمة سياسية ـ اجتماعية تكتسب طابع الأزمة الثقافية العامة، يفتح ثغرة في ذاتية الفنان الاسرائيلي القومية الضيقة.. أو لنقل في ذاتيته التي رسمتها المؤسسة الحاكمة بدقة وجعلتها تتحرك فقط لخدمة الدعوة الصهيونية المتطرفة وارتباطها بفلسطين، أرضاً وتاريخاً!

غير أن اورن لم يتجاوز، في تحقيقه السالف، حد رصد التجليات الفردية للظاهرة المطروقة إلى رؤية سببيتها

الموضوعية. وكل ما حاول أن يفعله هو القول إشارياً أن ظاهرة وعي الفنان لدوره بما يشحن هذا الدور بمضمون إنساني هي سبب وليس نتيجة. وهذا الطرح المغلوط والمرفوض كل الرفض يقودنا إلى إثارة السؤال التالي: ما هي علاقة الفنان بالفن؟! وقبل الإجابة على هذا السؤال من الضروري الاعتراف بأن الابداع الفني، باعتباره نوعاً خاصاً من نشاط البشر الجمالي، كان وليد حاجة اجتماعية ملحّة إلى تطوير وسائل الاتصال وتوارث المعلومات الحسيّة وإلى إرادة البشر في سبيل تطوير عالمهم الروحي من جميع الجوانب. من هنا يمكن الحديث عن دور الفنان الاجتماعي من خلال فنه!

إن هذا الدور يتحدد عبر استيعاب المقولة الخالدة بأن الفنان، على ما يتمتع به من مخيلة مبدعة وموهبة ومهارة وما إلى ذلك، ليس في عزلة عن المجتمع الذي يعيش فيه. إنه مندرج ضمن وسط اجتماعي معين يؤثر مع مصالحه الشاملة في الفنان وفي الظروف المادية لإبداعه وفي عالمه الروحي ومصالحه ومشاعره وأفكاره وعقيدته وموقفه التي تمارس، إلى جانب ملكاته، دوراً جوهرياً في إبداعه وتحدد توجهه وأهدافه ودوافعه.

ولدى مطابقة هذا الكلام مع الواقع الاسرائيلي الذي أعقب حرب لبنان يمكن القول، بكل بساطة، إن ظاهرة اتساع اليقظة بين أوساط الرأي العام الاسرائيلي على بهاظة الثمن الذي دفعوه بجريرة سياسة حكامهم وعربداتهم الدموية قد خلقت وسطاً فنياً هو جزء منها.

ومن المهم، في هذا السياق، ملاحظة أن رهان الفكر الصهيوني على وضع الدور الوظيفي للفنان بديلاً عن وعيه قد خسر الجولة الأولى. إن أقوال آرتسي ورووت هي بمثابة اعتراف بالدور الخاص الذي يمارسه وعي الفنان المرتهن بآرائه العامة. بدون

هذا الوعي ـ تقول روت ـ يحكم الفنان على نفسه بالعدمية!

يقـول كارل مـاركس أنه حتى «النحلـة تشبه بعض البشر (أي فنـاني العمارة) بتشييـدهـا الخـلايـا الشمعيـة. ولكن أسـوأ معماري يتميز منذ البداية عن أحسن نحلة بأنه قبـل أن يشيد خلية من الشمع يكون قد شيدها في دماغه»!!

في التحقيق الصحفي الموثق الثاني وجهت مجلـة «لهيطون» إلى عدد من مؤلفي الأغاني والمطربين الاسرائيليـين السؤال التالي: «هل بكمت الموز[١٦] حين دوّت المدافع»؟ في محاولة لتحري دوافع ظاهرة ضمور الأغنية العبرية المهللة «لمجريات الحرب الأخـيرة إلى حد تلاشي دورها في مجال رفع المعنويات ونفخ الحمـاسة في نفوس الجنود المقاتلين».

وأعادت المجلة إلى الأذهان ظاهرة «ازدهار» الأغنية العبريـة في الفتـرات المتزامنـة مع «حـروب اسرائيل» ومـا ترتب عـلى هذا «الازدهـار» من تفجر الحمـاس القومي الجيـاش وفق دمـامـل الاستعـلاء الشوفيني والعنجهيـة العسكريـة التي تمثلت عقب عدوان حزيران ١٩٦٧ (يسمونه، عنجهية واستعلاء، بـ «حرب الأيام الستة») في أغـان مثل «نـاصر في انتظار رابـين» و«عدنـا إليك ثانية يا شرم الشيخ» وغيرهما.

وهاكم ردود عدد ممن استمزجتهم المجلة قبل الدخول في صلب الظاهرة: المطـرب أريك ليفي، الـذي غنى ممجداً الحـروب منذ أيام «البلماخ» وائتلق نجمه في غمرة العدوان الحزيـراني، فسّر الظاهرة بقوله:

(١٦) الموز (Muse)، ربات الفنون التسع. وهنّ تسع شقيقات بنات جوبيتر (أشهر آلهـة اليونان) يحمين الغناء والشعر والفنون في الميثولوجيا اليونانية. وقد اختصت كل واحـدة منهن بفن من الفنون اليونانية التسعة، فاختصت يوراني بعلم الفلك وكيليو بعلم التاريخ ويوتيرب بالموسيقى وتربسيكور بالرقص وثالي بالكوميديا وملبومـين بالتـراجيديـا وأراتوا بالشعر الرثائي والتمري وبولين بالشعر الغنائي وكليوب بالشعر الحماسي.

«هذه هي الحرب الأولى التي يشنها جيش الدفاع الاسرائيلي (تساهل) فيما وراء الحدود بحجة الدفاع عن النفس ويتحول إلى جيش محتل. وفيما يخص الأغاني كان مستحيلاً في اللاوعي، سواء لدى الشعب ولدى مطربيه ومبدعيه ولدى المجتمع الاسرائيلي بأسره، التخلص من الشعور بأن هذه الحرب ليست حرباً عادلة. ولكون هذه الحرب قد استقطبت نقاشاً واسعاً فإنها لم تحظ بإجماع شعوري وفني على انها حرب عادلة.. لذلك بكمت (الموز).. لم تكن هذه الحرب أمراً لابد منه وواقع انه لم تكتب أغان على هامشها هو أحد عوارض القطيعة بين ينبوع الابداع في البلاد وبين الادعاء الخلقي بعدالتها».

وأضافت المطربة حافا البرشتاين إلى تفسيرات ليفي قولها:

«إن حقيقة انعدام الأغاني هي ظاهرة قائمة بذاتها.. لقد وجدت نفسي ولأول مرة في حياتي أتخذ موقفاً سياسياً من الحرب وأشارك في المظاهرة الشعبية في تل أبيب ضد مجزرة صبرا وشاتيلا».

أما المطرب شلومو بار فكان أكثرهم تعاطفاً مع الظاهرة. قال:

«أعتقد أنه من واجب الموسيقى أن تخدم السلام وليس الحرب. وإني ضد الأغاني التي تمجد وتفاخر ببطولاتنا الجسدية. يجب أن نكتب ونغني ضد الحرب. بيد أني أعلم أن غالبية المبدعين في البلاد لا يجاهرون بأي موقف سياسي أو اجتماعي. وهذا نابع، حسب رأيي، عن اتجاه يحاول الاهتمام أولاً وقبل كل شيء بالمصالح الاقتصادية والفنية الأنانية للفرد المعني».

إن هذه الاعترافات بليغة كفايتها لتؤكد ان «الموز» لم تبكم تحت دوي المدافع.. إنما كان بكمها، في الأساس، انعكاساً لانهيار ما يسمى بـ «الاجماع القومي». وهذا إذا سلمنا بأنها بكمت ولم تفجر الآهات المكتومة في صدور الأمهات الثواكل والزوجات الأرامل والأطفال اليتامى أغاني وأناشيد معادية للحرب والموت. وكيف نسلّم؟! فمثلما عجزت المدافع عن أن توقف الشمس على مداخل بيروت الغربية الوطنية لتكمل حرب الإبادة عجزت عن بكم «الموز» التي أرادت عتمة النفق

الاسرائيلي أن تمنع نشيدها وسط قرع طبول الحـرب والقعقعة بالسلاح والأوهام العسكرية المميتة.

وهكذا على النقيض من «نـاصر في انتظار رابـين» و«عدنـا إليك ثانية يا شرم الشيخ» انتشرت الأغنية الشعبية التالية:

هدّي هدّي يا طيّاره
وعالبنان ودينا
تنحارب عشان شارون
وبالتابوت يردّونا

رددها في البداية جنود اسرائيليون في الأراضي اللبنانيـة المحتلة ثم سرعان ما أصبحت على كل لسان. والذي ألّف هذه الأغنية، وهـو رفيف يتسحاق (٢٦) عـاماً من أعضـاء حـركـة الجنـود «يوجد حد» المناهضـة للحرب في لبنـان، ألّف أغنية أخـرى لم يكن «حظ» انتشارها شعبيـاً مثل «حظ» الأولى وهـذه ترجمتهـا الحرفية:

حربي الصغيرة
عمرها حوالي السنة
تلقيتها من رفول هدية
حربي الصغيرة
مختلفة تماماً
يسمونها سلاماً
لكنها حرب

يحق لشلومو بار أن يرى في عدم مجاهرة المبدعـين بأي مـوقف سياسي أو اجتماعي بكماً في غير محله. ولكن يحق لنا، في الوقت نفســه، أن نرى في هـذا البكم بما ينطـوي عليـه من تحفظـات وتحولات داخلية، نفسانية، نوعاً من التذمر يشير إلى انفراط ما في مسبحـة «الاجماع القـومي الصهيـوني». ورغم كـون هـذا الجانب من ردود الفعل تعبيـراً عن مواقـع التأثـير الحاسم في

وعي الجمهور إلا أنه يمارس تأثيره المحدود من خلال الحث على التفكير والتأمل ومخاطبة الأحاسيس.

وبقدر ما يكون هذا البكم و«هدّي هدّي يا طيارة» بشير «مولود جديد» فإنه، بالقدر نفسه، شهادة شرف لملحمة الصمود الفلسطيني ـ اللبناني الوطني المعجزة.

■ شخصية العربي في السينما الاسرائيلية (قبل وبعد حرب ١٩٨٢)

يكاد توظيف شخصية العربي أن يصبح ظاهرة في السينما الاسرائيلية وذلك بالارتكاز إلى الكم الكبير من الأفلام الروائية، الطويلة والقصيرة، الذي عرض على الشاشة الكبيرة خلال العقد الأخير من الزمان وتعامل مباشرة أو مواربة مع شخصيات عربية.

لكن طابع تلك الأفلام يختلف بتوالي المراحل المتأثرة بالواقع السياسي الاسرائيلي الرسمي وبالمناخ العام في المنطقة. بعبارة أخرى، فان دوافع توظيف شخصية العربي والكيفية التي يتم فيها هذا الأمر في السينما الاسرائيلية لا تبدأ من اللاشيء، من تلقائية صنّاع السينما، وإنما هي انعكاس كلي الجوانب للواقع المعاشي، سواء السياسي منه أم الاجتماعي.

ومن نافل القول أن السينما الاسرائيلية، مثل سائر أدوات الثقافة اليهودية، حاولت انطلاقاً من فيلمها الأول أن تخدم السلطة الصهيونية السياسية بدأب متواصل وأن تلقي إلى جمهور المشاهدين بالطعم الذي تهواه هذه السلطة، وبالأخص فيما يتعلق بالموقف من الانسان العربي، الذي تشكل محدداته تدعيماً للكيان الخاص باسرائيل، وظلت بعد ذلك تصنع «أفلامها» طبقاً للمقاييس السائدة في عالم هذه السلطة.

لكن هذه «الظاهرة» تتخذ في الآونة الأخيرة وضعية خاصة تدلل عليها بعض الأفلام التي تحاول أن تستوعب أطروحات المرحلة لتفلت من أسر الاستلاب للسلطة باحثة بالتعبير الواعي عن حقائق الحياة وتجميعاً موفقاً للوقائع من إدراك للمتغيرات.

«الوضعية الخاصة» السالفة أسماها الناقد الفني الاسرائيلي المعروف مئير شنيتسر «وضعية التغذية المتبادلة بين السياسة (الواقع المعاشي) وبين الصناعة السينمائية». والتي ترتب عليها الاقتراب أكثر فأكثر، من التعامل مع شخصية العربي بوصفه ذاتاً إنسانية وصاحب حق شرعي، وإن كانت التجربة داخل هذه الوضعية لا تزال مشوبة ببعض السلبيات المتوارثة عن الوضعيات السابقة.

يقول شنيتسر ـ في دراسة نقدية خصّ بها ملحق اليوبيل العشرين لصحيفة الحزب الشيوعي الاسرائيلي باللغة العبرية «زو هديرخ»[١٧] ـ إن الأفلام الاسرائيلية التي تعاملت مع شخصية العربي تنقسم إلى قسمين، شأنها في ذلك شأن سائر مضامير الثقافة اليهودية التي تعاملت مع الشخصية المذكورة. القسم الأول: الأفلام التي أنتجت قبيل الحرب العدوانية على لبنان. والقسم الثاني: الأفلام التي أنتجت بعد هذه الحرب.

فحتى العام ١٩٨٢ (عام الحرب على لبنان) جرى التعامل مع شخصية العربي في السينما الاسرائيلية من وجهتي نظر متصلتين مبنى ومعنى ـ حسبما يؤكد شنيتسر. الأولى: وجهة النظر التي رأت فيه عدواً أبدياً. والثانية: وجهة نظر ذات طابع رومانتيكي وأسلوب باهت يفتقد إلى العمق والجدية، تضاف إليهما رؤية جزئية أحادية الجانب للواقع الاجتماعي.

---

(١٧) صيف ١٩٨٦.

وقد انسحبت وجهة النظر الأولى على الأفلام كافة التي أعقبت «حرب فلسطين» سنة ١٩٤٨، مثل «الأكمة ٢٤ لا تجيب» و«الضاحية المخلصة» و«عامود النار». وعلى الأفلام التي تلت عدوان حزيران/ يونيو ١٩٦٧، مثل «هل تحترق تل أبيب» و«الهدف تيران» و«خمسة أيام في سيناء» و«كل مكار ملك» و«ثلاثة أيام حزيرانية».

أما وجهة النظر الثانية فإنها تترسم المعالم الهامشية لشخصية العربي الشرقية، برؤية مبتورة مشوهة عن عمد. وفي كل الأفلام التي تنطوي على وجهة النظر هذه، يبدو العرب شخصيات شاحبة لا أهمية لها. ويبدون، من خلال وصف الأفلام لهم، بلغة لا دفء فيها، كشيء زائد عن الحاجة وثرثرة فارغة. إذ أن هذه الأفلام لا تقيم علاقة جدلية بين الشخصيات وبين البيئة والمناخ الاجتماعي والنفسي، الذي تتحرك خلاله وتتنفس تحت سمائه.

ويقف في صلب وجهة النظر الثانية تصوير الجراح والشذوذ والعاهات المتكتمة في شخصية العربي.

ويستذكر شنيتسر أن إبراز «الشذوذ الجنسي» هو عنصر طاغ على الأدب الاستعماري في شتى بقاع الأرض وعلى امتداد مختلف العصور. وقد تمثلت أحكام هذا العنصر في أفلام مثل «الخماسين» و«ضغط» و«هروب الحجل» و«العاشق».

وتنفتح وجهة النظر هذه، كذلك، على أفلام «الكاوبوي» الأميركية لتصنع أفلاماً هي في الحقيقة نسخة طبق الأصل عن أفلام «السيد» فيما وراء المحيط.

إن أفلاماً اسرائيلية مثل «رمال ساخنة» و«رجال الدوريات» و«سجناء الحرية» و«حسمبا» و«لصوص الخيل» ـ يقول شنيتسر ـ هي أفلام غربية السمات والمضمون شرقية الزمان

والجغرافيا. والعربي في هذه الأفلام لا يعدو أكثر من كونه هندياً أحمر يمتطي فرساً (أو حماراً أو جملاً) ولا همّ له إلا «تنغيص» حياة المواطن الأبيض ـ الاسرائيلي ـ! ولهذا فإن الحرب ضده هي حتمية وليست أكثر من وسيلة للدفاع عن النفس.

لقد شكّل فيلم «الخماسين»، برأي شنيتسر، نقطة تحول مهمة في التعامل مع شخصية العربي في السينما الاسرائيلية. فبقطع النظر عن مضمونه القبيح وغير الجدي ورؤيته الجزئية للواقع الاجتماعي، نقل هذا الفيلم الصراع العربي ـ الاسرائيلي من خلفيته التفصيلية الحقيقية، أي من حقيقة كونه صراعاً فلسطينياً ـ اسرائيلياً أولاً وقبل كل شيء.

وجاءت «حرب لبنان» لتعمق الإدراك بهذه الخلفية بين أوساط جمهور مشاهدي الشاشة الكبيرة، وعلى الأخص فيما يتعلق بصناعة الأفلام الاسرائيلية.

فمباشرة بعد العام ١٩٨٢ عرضت على «الشاشة الاسرائيلية الكبيرة» الأفلام التالية: «في يوم صاف يمكن مشاهدة دمشق» و«أرض حارة» و«طبق من فضة» و«من وراء القضبان». في هذه الأفلام جميعها بلا استثناء وبغض النظر عن تمايز مستوياتها الفنية بتنا نرى ـ يؤكد شنيتسر ـ شخصية الفلسطيني لا شخصية العربي العمومية بوصفها شخصية شرعية صاحبة حقوق في هذه البلاد. ومردّ هذا التغيير عائد إلى وضعية التغذية المتبادلة بين السياسة وبين الصناعة السينمائية، وصولاً إلى تأثرهما الناجز ببعضهما البعض.

وتستمد هذه الأفلام، التي تمتلىء بكثير من المواقف والشوائب السلبية، أهميتها من كونها تحاول أن تتلمس معالم وحدود عالم أبطالها وأن تكتسب مفرداتها الخاصة وأسلوبها المميز

ضمن عمليـة الأعلام الكثيفـة المخططـة لـلأفـلام التي درجت السينما الاسرائيلية على صنعها. ومنـوهاً بتميـز فيلم «من وراء القضبـان»، من ناحيـة المضمـون عـلى مـا عـداه من الأفـلام المذكورة، يشير شنيتسر إلى أن هذا الفيلم ينتهج طريقاً يتضمن قدراً من الالتزام السياسي وتفصيلاتـه. ويبدو أن سبب الجـدة في المـوضـوع أصـلاً، هو التنـاول الأصيل والخـلاق لسيـاسـة السيناريو والمخرج. ولعل أهم المضامين السياسية لهـذا الفيلم هو أنه يعترف بحق الفلسطيني ويرنو إلى الإنسان داخل العدو لا إلى العدو داخل الإنسان.

ويخلص شنيتسر إلى القول ان «من وراء القضبان» ليس أفضل ما قدم من أفـلام تعاملت مـع الشخصية العـربية في السينمـا الاسرائيلية ـ فثمة أفلام أخرى من هذا القبيل مثـل «ابتسامـة الجدي» عن قصة دافيد غروسمان ومن اخراج شمعـون دوتان و«العاشق» عن قصة أ.ب. يهوشواع ومن اخـراج ميخال بـات آدم «وجسر ضيق جـداً» من اخراج نسيم ديـان عن سيناريـو كتبه بالتعـاون مع حـاييم حيفر و«نـادية» عن قصـة غليله رون فيدر ومن اخراج أمنون روبنشتاين وغيره.

والحقيقـة أن هذه الأفـلام ليست أفضل من سـابقـاتهـا. لكن الشيء المؤكد أنه ينطبق على صناع السينمـا الاسرائيلية المثـل السائر الذي يقول: «يثاب المرء رغم أنفه».

■ أدب «الأخطاء العظيمة» (وقفة أمام روايتين اسرائيليتين)

هذه مداخلـة عن روايتين اسرائيليتـين تنسرحان ضمن النتـاج الجـديـد المتضمن منظـوراً مختلفـاً عن الأدب الصـهيـوني الكلاسيكي الذي يصور العربي أبشع تصويـر. ويتضح منهـا

أن هذا الأدب الجديد، ممثلاً بالنموذجين المدروسين هنا، يقع فيما يمكن تسميته بـ «الأخطاء العظيمة».. وهي هنا الأساسية بالنظر إلى المشكلة الفلسطينية.

لا ينبغي تحميل حقيقة كون ما تواضعنا على تسميته بـ «أدب القسوة الاسرائيلي»، الذي أفرزته حرب الإبادة على الشعب العربي الفلسطيني في لبنان، يتمايز عن كل ما سبقه من أدب اسرائيلي فيما يخص الموقف من الإنسان العربي أكثر مما تحتمل. ذلك أن غالبية نماذج هذا الأدب، سواء الشعر منه أم النثر، ظلت تعاني السمات الرسمية العامة للوثيقة الأدبية الاسرائيلية المؤدلجة بالفكر الصهيوني الجامح بالنسبة للموقف السالف ـ أعني الابتعاد، بداية، عن اتجاه التعامل مع الإنسان العربي بوصفه ذاتاً إنسانية وصاحب حق. والابتعاد عن محاولة معايشة عمقه الداخلي النفساني.

وحين يقف القارىء أمام نماذج «أدب القسوة» المذكور، يتذكر مباشرة الكتابات الأدبية الاسرائيلية، التي تبدأ بالكاتب ولا تنتهي إلا لتقف عنده، أي أن «الأنا الكاتب ـ الفرد» تحتل المركز في العمل الأدبي، أما التاريخ والانسان العربي فيحتلان الهوامش الزائدة.

وغالباً ما تنتفي في شخصية البطل العربي سمات الحركة الفردية المستقلة والإصرار على حقه، ويظل يتحرك في إطار «الشخصية العربية»، التي يتم استحضارها لأغراض اسرائيلية بحتة ـ أغراض انتقاد المجتمع الاسرائيلي ـ لا لغرض الوضوح والإنارة وتحديد الأشياء بأسمائها الصريحة فيما يخص الشخصية العربية ذاتها.

ولأنها كذلك فإن الكتابة عنها، من قبل الكاتب الاسرائيلي، تبقى تدور حول العام وتلمس الخاص لمساً خفيفاً لا يخلو من موقف

أيديولوجي ذي مفاهيم وأحكام مسبقة مجردة يبنيها فكر الكاتب وينزع إلى قولها بلا مواربة دون أن يهتم بالملامح والتفاصيل. ولهذا، أيضاً، يبدو حكم «أدب القسوة» جاهزاً منذ البداية. فكأن مريديه لا يكتشفون الشخصية الجديدة التي يستحضرونها وهي شخصية العربي، بقدر ما يؤكدون ويوثقون أفكارهم. وهذا ما يجعل كتاباتهم تأخذ شكل الاختزال، إن لم تكن كتابة إشارية لا تمس الشيء إلا لتبتعد عنه دون أن تحتويه. وهذا الشكل من الكتابة، يقع بالضرورة في بعض «الأخطاء العظيمة».

وحتى لا نضيع في وهج العبارات التعميمية سنتوقف، بقدر مناسب من التفصيل، عند نتاجين روائيين من «أدب القسوة» هذا يمثلان شكل الكتابة، الذي أخذنا عليه فيما سبق وقوعه في بعض «الأخطاء العظيمة».

ولا بد قبل ذلك من الإشارة إلى أنه من السابق لأوانه الآن اجراء تقييم كامل للآثار التي خلفتها حرب لبنان على الأدب العبري الاسرائيلي، سلباً أم إيجاباً. إنما ينبغي عدم صرف النظر عن الحقيقة، التي تنحصر مصداقيتها في انها وقعت فعلاً والكامنة في أن الصمود الفلسطيني في بيروت المدجج بفاعلية قوى وطنية لبنانية فرض على اسرائيل أطول حرب في تاريخها وكبدها ثمناً باهظاً، بشرياً واقتصادياً، وقلب حسابات قادتها الذين حسبوا انهم خارجون إلى نزهة خلوية لن تستغرق مدة أطول من ٧٢ ساعة على الأكثر (هل تذكرون تصريحات الجنرال يسمو شارون؟). إن كل ذلك عمق الأزمة النفسية لدى الكتاب العبريين والناتجة عن إصرار العربي الفلسطيني على عدم الزوال وإصراره على حقه المشروع في وطنه. ولذا بتنا نرى أن غالبية الأعمال الأدبية المكتوبة بعد هذه الحرب، وبتأثيرها

الفاعل المباشر، تتمايز عن كل ما سبقها من أعمال أدبية فيما يخص الموقف من الإنسان العربي.

* * *

النتاج الأول الذي نتناوله هو رواية «الطريق إلى عين حارود» لعاموس كينان، التي ترجمت إلى العربية ونشرت في مجلة اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين «الكرمل» (العدد ١٣).

الشخصية العربية في هذه الرواية ـ محمود ـ هي شخصية محورية بقدر محورية الشخصية اليهودية ـ الراوي ـ التي هي شخصية الكاتب ذاته.

إلا أن محورية شخصية محمود لم تعط مصداقية تقنع الآخرين بمعاملته معاملة أخرى، تناقض المعاملة المقولبة المعادية التي يتبعها الشارع الاسرائيلي إزاء العربي.

ومع أننا نجد في أغلبية أجزاء الرواية تعبيراً صادقاً عن التعاطف مع «محمود»، يعكس تعبيراً صادقاً مكملاً عن الندم وإعادة النظر والخيبة والإحباط الذي تستشعره الشخصية اليهودية الموازية، إزاء ما كابده الشعب العربي الفلسطيني من عذاب وتشريد وهلاك على يد الصهيونية. ومع أننا نجد رؤية واقعية لموقع العربي في عملية الخلاص من كابوس العدوان الاسرائيلي، رؤية يمثلها قول الكاتب: «يتعين علي أن أجد عربياً.. كل خطتي للهرب مبنية على العرب». مع كل ذلك، فإن غرض توظيف الشخصية العربية لم يكن، بأية حال، لذاتها بقدر ما كان لخدمة مواقف الكاتب ذاته من مسار بعض التطورات الاسرائيلية الصرف.

فرواية «الطريق إلى عين حارود» تدور حول نفسها في فلك خاص، وتستمد مواردها الأولية من تفصيلات الوعي بمقدار ما تستمدها من تفصيلات الواقع الخارجي. والشخصية اليهودية

فيها هي شخصية قلقة ممزقة مستلبة موزعة بين عالم واقعها العدائي وبين عالم وعيها الذي لا تستطيع العودة إليه. ذبذبتها بين العالمين تؤكدها حركة ذاكرتها، التي لا تكف عن الانتقال والقفز عبر الأزمنة المتقاطعة في حيز مكاني واحد: لا تكف عن الانتقال بين طفولة قديمة منتهية وبين واقع عدائي آني.

وباختصار يمكن إدراج هموم هذه الرواية تحت عناوين ثلاثة:

أولاً: الرعب من سماء قد تغيب شمسها في المستقبل المنظور.

ثانياً: الرعب من سيطرة العسكرتارية الاسرائيلية على كل مقاليد الأمور. وما يرافق ذلك من انحراف حاد نحو اليمين يمكن أن يقود إلى الفاشية المكشوفة.

ثالثاً: اليقظة ـ وكأنه يوم الحساب ـ إزاء تبدلات هي تجسيدات للحلم بالنقيض.

وإذا كانت هذه الأمور لها أسبابها المبررة في جملة من التطورات والتفاعلات داخل اسرائيل الثمانينات فإنه ما من تبرير لسقوط الكاتب في بعض «الأخطاء العظيمة» ازاء شخصية «محمود» والإنسان العربي عموماً، وهي «الأخطاء العظيمة» ذاتها لكل الأعمال الأدبية المؤدلجة بالفكر الصهيوني الجامح.

وهذه الإشكالية تجعل رواية «الطريق إلى عين حارود» تتجه إلى القول السياسي المباشر بدون الالتفات، بشكل كاف، إلى حركة التاريخ، حتى تصبح التجربة الانسانية، أو تكاد، تجربة سياسية فحسب.

ما هي «الأخطاء العظيمة» التي يقع فيها كينان ازاء الإنسان العربي؟

(١) يصرّ كينان على أن لليهود حقوقاً تاريخية في فلسطين.

ويبرز هذا الإصرار في تعامله المفرط مع مسائل «الآثار اليهودية». فهو يستطرد، بشكل مقحم، في ذكر الأسماء والوقائع اليهودية إلى جانب تلميحات طفيفة ـ لتبرئة الذمة. بالنسبة للآخرين الذين عاشوا في هذه البلاد أو مروا فيها!

(٢) يضع على فم بطله العربي المعادلة السياسية التالية: «يوجد فقط إما وإما» (يقصد: إما العربي وإما اليهودي!) بينما يضع على فم بطله اليهودي المعادلة النقيضة التالية:«لا يوجد فقط إما وإما». وهذا تزوير مفضوح لحقائق السياسة البسيطة، فإن التزمت وشهوة التوسع والاحتلال والعنصرية، من الجانب الاسرائيلي، هي العقبات الكأداء التي تعترض سبيل أية تسوية سلمية تضمن لأصحاب الوطن الشرعيين حقهم في العودة إلى وطنهم الشرعي.

(٣) المساواة بين القاتل والضحية. وتبرز هذه المساواة، أكثر ما تبرز، في الحوار غير المتكافىء بين الكاتب وبين المرحوم الشاعر راشد حسين:«وسألت راشد لماذا لا يذرف دمعة على ولدي الذي مات وليس على ولده فقط؟ولم يعرف كيف يجيب».

(٤) الإعجاب الشديد بالعسكري الاسرائيلي المتشبث بعنفوانه وعجرفته. مقابل ذلك، ومناقضاً له، تصوير الجنود السوريين (ويراد عبرهم استيحاء صورة متكاملة للعسكريين العرب) في هيئة القساة المتوحشين وغلاظ القلوب. وبقدر ما هو واضح فإن هذه المقارنة تخفي عنصرية ذات رؤية أشد رجعية في تبرير التفاوت الحضاري للمجتمعات على أساس انتماء الشعوب إلى

أجناس «عليا» وأخرى «دنيا» فاتحة البـاب بذلـك لمفاهيم استعمارية من نوع خاص تغفل الزمان والمكان وتختـزل التاريخ والحضارة.

***

أما النتاج الثاني فهو روايـة أيضاً بعنـوان «ناديـة» من تأليف غليله رون فيدر. وتحكي قصـة فتاة عـربية تتلقى الـدراسة في مدرسة يهودية. وأريد من هذه الرواية ـ حسبما تؤكد الكاتبة ـ أن تعمق معرفة القـراء اليهود أكثـر فأكثـر بنمط حياة العـرب وتقاليدهم ـ سعياً وراء غرس مثل التعايش والتفاهم، بديلاً عن الأفكار العنصرية التي بلغ انفلاتهـا أوجه بعـد سطوع «نجم» الرابي الفاشي مئير كهانا.

بيد أن بناء شخصية نادية، من جانب المؤلفـة، لا يقدم جـواباً شافياً عـلى الكهانيـة، فضلاً عن ذلـك فإن الـرواية تقـدم رؤية فوقية ازاء العربي بعد ممارسة عمليـة تكوين مصطنـع بحقه، عـلى حساب طمس قسمـات وجهه ومعـالم وجـوده وفي اتجـاه تدعيم الكيان الخاص باسرائيل.

وفي ضوء ذلك، فإن الرواية كتبت أساساً وبشكل رئيسي لإعادة صياغة العربي الفلسطيني المقيم في اسرائيل، صيـاغة روحيـة ونفسية وقومية، لتزيين الدعوة إلى ذوبانه في المجتمع اليهودي.

إن العـدمية هي جـزء أساسي من التكـوين المصطنع السـالف للشخصية العربية في هذه الرواية. فنادية منغلقة داخل الاطـار الاسرائيلي تمارس دورها فيه بـوصفها جـزءاً من أقلية مغلـوبة على أمرها، وحركتها مرتبطة تماماً بحركة اليهودي المتنوّر.

إن هذه المعادلة تقول، بدون مواربة، ان على العربي في اسرائيل أن يعمل على تحقيق وجوده الخاص داخل المجتمع الاسرائيـلي، وأن يطـرح عنه كـل الحقائق التـاريخية. والحقيقـة العريـانـة

الوجه، بلا مكياج، ان الرواية تصادر الهوية القومية للشخصية العربية مقابلاً وموزياً لاغتصاب الأرض واغتصاب حقوق أصحاب الوطن الشرعيين، وأولها حقه في العودة إلى وطنه الشرعي.

ولعل قراءة سريعة للرواية أن تقدم صورة «العربي الاسرائيلي الجديد» و«بطاقته الشخصية» ليس كانسان يسأل وإنما كإنسان يسرق.

في سن الرابعة عشرة تقرر نادية أن تصبح طبيبة. وفي سبيل ذلك يتعين عليها أن تغادر قريتها وتيمم شطر مدرسة داخلية يهودية. إن دونية التعليم العربي تصبح بدهية أو تكاد. والنتيجة المطلوب استخلاصها، على هذا الضوء، هي أنه في سبيل تطوير حياتها يجب أن تنسلخ عن قريتها وعائلتها وأصدقائها وعن محيطها القومي الطبيعي. تقول: «سأصبح طبيبة. ومن أجل أن أصبح كذلك عليّ أن أسجل في الجامعة العبرية في القدس حيث يتلقون العلم باللغة العبرية. ولهذا عليّ أن أعدّ نفسي وأن أتعلم في ثانوية يهودية. وهكذا فقد ستكون للشهادة التي سأحصل عليها قيمة مغايرة».

لا عدالة إطلاقاً في تبرير التفاوت بين دونية التعليم العربي وبين فوقية التعليم اليهودي، كما يتضح من النص أعلاه، على أساس انتماء الشعوب الحضاري بقطع النظر عن الواقع السياسي الاسرائيلي الرسمي الذي يكرس هذا التفاوت بنموذجية بالغة التعقيد.

وفي انتقالها إلى المدرسة اليهودية تخلي «نادية العربية» مكانها لنادية «الاسرائيلية المعاصرة» التي كانت اسرائيل بالنسبة لها «دار الحضانة متعددة الأهداف».

وهـذا الذوبـان الجديـد أو المعاصر، يعني بـالنسبـة للكـاتبـة حقيقتين لا ثالث لهما:

أولاً: إن مجرد كون نادية عـربية يسهم في تـأطير انتمـائها إلى التخلف الكلي الشامل ويحول دون تقدمها.

ثانياً: إن انطلاقتها التنويرية، وصولاً إلى التفـوق الناجـز، غير ممكنـة بغير اقتـلاع الحقيقة الأولى من جـذورها وجعلهـا تفتح نوافذها على ثقافة وآداب وفنـون المجتمع الاسرائيـلي وهي جزء منه. بل يجب تجاوز ذلك إلى أن يلقى بذلك «المعدن العربي» في البـوتقة، وأن يـذوب ليصبح جـزءاً من المعدن العـام للمجتمع الذي يعيش فيه.

وفي هذا الاتجاه، فالعربي الذي يكون ذاته مرفوض. ومرفـوض أيضاً العربي الذي يطالب برفع القيـود التي تحول بـين العرب وبين الاندماج في المجتمع الاسرائيـلي الذي يعيشـون فيه، عـلى أسـاس الاعتراف بحق شعبـه التـاريخي بـالعـودة إلى وطنـه الشرعي وإقامة دولته المستقلة بقيادة ممثله الشرعي والـوحيد، منظمة التحرير الفلسطينية.

ومع أن المؤلفة تهيء في عدد من صفحات الرواية، أسباب عدم أهلية هذا الذوبان الكامن في تفشي الأفكار العنصريـة المعاديـة للعرب بين الشبيبة اليهودية لتقول باستحالـة حدوثـه، إلا أنها تنهي الرواية بالإبقاء على ناديـة قلقة مـوزعة بـين انتمائهـا إلى بيئتها القومية التاريخية، التي لا تستطيع العـودة إليها، وبـين رغبتهـا في المجتمع اليهـودي، الـذي يقف السرطـان العنصري سداً منيعاً أمام إمكان تحقيقه.

وهكـذا نرى أن الكـاتبة لا تسعى إلى الـوضوح والإنـارة وإلى تحديد الأشياء بأسمائها الصريحة وإلى إقامـة علاقـة صحيحة بين المكتوب وبين الواقع المعاش.

ولهذا كله ظـل الغائب الكبـير في الروايـة هو الإنسـان العربي، واستعيض عنه بإنسـان عربي يمكن أن يكـون كل شيء سـوى أن يكون ذاته.

ومع الاعتراف التام بعنصرية هذه الروايـة، وبعنصرية إسقـاط عقدة الانفصام على الشخصية العربية فيها، إلا أننا في الـوقت نفسه لابد أن نشير إلى أنه لأول مـرة في تاريـخ الأدب العبري يقوم أديب بمحاولة صنع عقل جديد للكائن العربي. ولأول مرة في تاريخ هـذا الأدب ينكبّ أديب على عمليـة تكوين مصطنعـة لظاهرة اسمها «الاسرائيلي العربي المعاصر».

هذا هو «أدب القسـوة الاسرائيلي» في بعض وجـوهه. وإذا كنـا ننظـر إليه بمـوقف مغايـر قليلاً فـذلـك لسبب أسـاسي مـرتبط بـالوثيقـة الأدبية الاسرائيليـة عامـة وليس بسبب مـوقفـه من الإنسـان العـربي. فهـذا الأدب يختلف ويبتعـد عن الكتـابـة التلفيقية والفضفاضة السابقة، التي تعيش على خـدمة جـوهر أهداف السلطة ومرتكزات الفكر الصهيوني المتـوحش ـ خدمـة تنوس بين ذات الكاتب وبين الفكر المؤدلج به، الذي يرى في كل نتاج أدبي، يجنح إلى مخالفة السلطة، شيطاناً أصفر.

فهرس عام

ث

ج

ح

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

أسطورة التكوين

يبحث هذا الكتاب فيما يسميه اسطورة تكوّن الثقافة الاسرائيلية، ويخلص إلى استنتاجات واقعية حول انعدام المقومات الصلبة والأسس الطبيعية المتعارف عليها في ثقافات الشعوب فيما جرى تقديمه على أنه ثقافة اسرائيلية تجاهر باطلاقيتها في تحديد الانتماء والهوية، بينما هي خليط هش وتهويمات مفتعلة تعوزها الأصالة والرفعة والرسوخ، أشبه بكثبان رملية جرداء سرعان ما هبت عليها رياح الغزو الاسرائيلي للبنان فأصابتها في هشاشتها، وخلقت وعياً مأزوماً يحاول استطلاع ثقافة الآخر: الفلسطيني.

فضلاً عن هذا، فإن الكتاب يثير موضوعات أخرى كالصراع بين الشرق والغرب في الثقافة الاسرائيلية، وهي مواضيع لا تزال كسواها من الموضوعات التي تشغل الكتابة الاسرائيلية وكتابها، غير مطروقة عربياً، وغير مستقرأة.

39



1855130661